كاتب وثلاثة مفكرين

محمد أركون

روجيه جارودي

عبد الرحمن بدوي

دكتور

سعيد اللاوندي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : **كاتب وثلاث مفكرين**

المــــؤلف : د. سعيد اللاوندي

رقم الايداع / ٢٠١٦/٢٠١٥٠

الطبعة الأولى ٢٠١٦



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

إهـــداء

إلى زوجتي صاحبتي

الدكتورة فاطمة الحصي

التي لولا دفعها لي لما صدر هذا الكتاب

فلقد كانت أفكاره سجالاً بيني وبينها.

د. سعيد اللاوندي

مقدمة

.. يمكن تصنيف هذا الكتاب ضمن قائمة «الكتب المعاشة» بمعنى أننى رأيت المؤلفين الثلاثة. وأخذت أناقشهم فى بعض الأخطار التى ملأت جنباتهم وعقولهم.

أما البروفسور محمد أركون.. عرفته عن قرب. والتقيت به فى مكتبه بجامعة السوروبون عندما كان رئيساً لقسم الدراسات الإسلامية بها، كما التقيت به ثانية فى مكان أسير إلى قلبه وهو أحد الفنادق المطلة على ميدان الجمهورية (لاريتيبليك).. ثم المرة الثالثة كان فى القاهرة ضمن وفد المائة مفكر التى دعتهم جامعة الدول العربية فى زمن عمرو موسى – واعتبرت رؤاهم هو حجر الزاوية فى أى تحرك عربى.. وأذكر أن التقيت بالدكتور أركون الذى طلب إليّ أن يزور مقام سيدنا الحسين وأن يذهب إلى الجامع الأزهر .. وقد حققت له ذلك

رغم أننا كنا بالقرب من منتصف الليل..

أما المرة الأخيرة التى التقيت به فكانت فى منزله الباريسي حيث التقيت أيضاً بزوجته المغربية ودخلنا إلى مكتبه وأخذت أتحدث معه عن الإمام محمد عبده وحركة الإصلاح الإسلامى.. ولا أنسى حديثه معى حول دور مصر الثقافى.. وأنه لولا مصر وإسهاماتها فى مجال الإصلاح الدينى لكان العالم العربى والإسلامى أسوأ كثيراً مما نرى ونشاهد.

* * *

أما البروفسور روجيه جارودى نادراً أنى ضربت معه موعداً فى منزله الواقع فى ضاحية (شامبينى) القريبة من باريس وقد قالت لى سيدة اكتشفت فيما بعد أنها زوجته الأولى وكان الرجل قد تزوج من سيدة فلسطينية أما مقابلاتهن الزوجية فكانت فى أحد فنادق مصر!

ولا أنسى أنه كان يحتقر المسلمون فى عصره وكان يعتبرهم قراصنة فكر وكتب وأدعياء دين.

وقد لفت نظرى تفسيره الشهير لكلمة «أمى».. وكان يرى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن سوى مثقف كبير؛ لأنه كان تاجراً ناجحاً.

وإن كنت أنسى فلا يمكن أن أنس مجلته الفصلية التى كان

يصدرها باللغة الفرنسية عنوان شرق وغرب! لكن ما لفت نظرى بحق أنه لم يكن يعرف باللغة العربية سوى بضع كلمات لا تسمن ولا تغنى من جوع! ورغم ذلك كان يكتب عن الإسلام حتى آخر يوم فى حياته!

* * *

وأخيراً عرفت عن قرب الفيلسوف عبد الرحمن بدوى أستاذ أساتذة الفلسفة فى الجامعات العربية.. وكنت التقيت به بطريق المصادفة فى أوائل السبعينيات القرن الماضى وفى هذا اليوم فتح النيران على السوروبون والمستشرقين وأستاذه طه حسين.. وطعن بخلاف الأدب العربى (عباس العقاد بهجوم ضارى).

ثم التقيت به لاحقاً أكثر من مرة.. وحاولت فى هذه السطور أن أصور ما كان بينى وبينه.. ولم أتعرض كثيراً لفلسفته ولكن حاولت أن أكتب عنه من الجانب الآخر الذى لا يعرفه أحد..

باختصار لقد كان عبد الرحمن بدوى أستاذاً جليلاً لنا ولجيلى كله حتى أنفاسه الأخيرة التى لظفها فى معهد ناصر بالقاهرة.

د. سعيد اللاوندى

■ محمد أركون



مفكر وباحث أكاديمي ومؤرخ جزائري

(١٩٢٨ ـ ١٤ سبتمبر ٢٠١٠ م)

عن حياته

ولد عام ١٩٢٨ في بلدة تاوريرت ميمون (آث يني) الأمازيغية بالجزائر، وانتقل مع عائلته إلى بلدة عين الأربعاء ولاية عين تموشنت حيث كانت دراسته الابتدائية بها. ثم واصل دراسته الثانوية في وهران، يذكر أركون نفسه أنه نشأ في عائلة فقيرة، وكان والده يملك متجراً صغيراً في قرية اسمها (عين الأربعاء) شرق وهران، فاضطر ابنه محمد أن ينتقل معه، ويحكي أركون عن نفسه بأن هذه القرية التي انتقل إليها كانت قرية غنية بالمستوطنين الفرنسيين وأنه عاش فيها «صدمة ثقافية»، ولما انتقل إلى هناك درس في مدرسة الآباء البيض التبشيرية، والأهم من ذلك كله أن أركون شرح مشاعره تجاه تلك المدرسة حيث يرى أنه (عند المقارنة بين تلك الدروس المحفزة في (مدرسة الآباء البيض) مع الجامعة، وذهب إلي أن الجامعة تبدو كصحراء فكرية)

ثم درس الأدب العربي والقانون والفلسفة والجغرافيا بجامعة الجزائر ثم بتدخل من المستشرق الفرنسي لوي ماسينيون قام بإعداد التبريز في اللغة والآداب العربية في جامعة السوربون في باريس ثم اهتم بفكر المؤرخ والفيلسوف ابن مسكويه الذي كان موضوع أطروحته.

فارق الحياة في ١٤ سبتمبر ٢٠١٠م عن عمر ناهز ٨٢ عاما بعد

معاناة مع المرض في العاصمة الفرنسية ودفن بالمغرب.

فكره

تميز فكر أركون بمحاولة عدم الفصل بين الحضارات (شرقية وغربية) واحتكار الإسقاطات على أحدهما دون الآخر، بل إمكانية فهم الحضارات دون النظر إليها على أنها شكل غريب من الآخر، وهو ينتقد الاستشراق المبني على هذه الصورة من البحث. يتميز طرح أركون الفكري على محاولة نقد أسس العقيدة الإسلامية على غرار المستشرقين حيث تتلمذ على المدرسة الاستشراقية ويورد كثيرا من المقدمات الخاطئة التي يبني عليها نتائج غير صحيحة. من آرائه أنه يرى أن القرآن مُحرف بسبب أن النقل غير مؤتمن وأن عند الدروز والإسماعيلية والزيدية وثائق سرية مهمة تفيدنا في معرفة النص الصحيح (يفيدنا في ذلك أيضاً سبر المكتبات الخاصة عند دروز سوريا، أو إسماعيلية الهند، أو زيدية اليمن، أو علوية المغرب، يوجد هناك في تلك المكتبات وثائق نائمة مُتمنعة، مُقفل عليها بالرتاج، الشيء الوحيد الذي يعزينا في عدم إمكانية الوصول إليها الآن هو معرفتنا بأنها محروسة جيداً

مسيرته الأكاديمية

عُين محمد أركون أستاذا لتاريخ الفكر الإسلامي والفلسفة في جامعة السوربون عام ١٩٨٠ بعد حصوله على درجة دكتوراه في

الفلسفة منها، وعمل كباحث مرافق في برلين عام ١٩٨٦ و١٩٨٧. شغل ومنذ العام ١٩٩٣ منصب عضو في مجلس إدارة معهد الدراسات الإسلامية في لندن.

مؤلفاته

كتب محمد أركون كتبه باللغة الفرنسية أو بالإنجليزية وترجمت أعماله إلى العديد من اللغات من بينها العربية والهولندية والإنكليزية والإندونيسية ومن مؤلفاته المترجمة إلى العربية:

١. الفكر العربي

٢. الإسلام: أصالة وممارسة

٣. تاريخية الفكر العربي الإسلامي أو «نقد العقل الإسلامي»

٤. الفكر الإسلامي: قراءة علمية

٥. الإسلام: الأخلاق والسياسة

٦. الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد

٧. العلمنة والدين: الإسلام، المسيحية، الغرب

٨. من الاجتهاد إلي نقد العقل الإسلامي

٩. من فيصل التفرقة إلي فصل المقال: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر

١٠. الإسلام أوروبا الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة.

١١. نزعة الأنسنة في الفكر العربي

١٢. قضايا في نقد العقل الديني. كيف نفهم الإسلام اليوم؟

١٣. الفكر الأصولي واستحالة التأصيل. نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي

١٤. معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية.

١٥. من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني.

١٦. أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟

١٧. القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني

١٨. تاريخ الجماعات السرية

الجوائز التي حصل عليها

- ضابط لواء الشرف
- جائزة بالمز الأكاديمية
- جائزة ليفي ديلا فيدا لدراسات الشرق الأوسط في كاليفورنيا.
- دكتوراه شرف من جامعة إكسيتر عام ٢٠٠٢.

- جائزة ابن رشد للفكر الحر عام ٢٠٠٣.

وفاته

توفي في سبتمبر ٢٠١٠ ودفن بمقبرة الشهداء بالرباط بطلب منه.

صورة الإسلام في الغرب

من المفارقات المثيرة للدهشة في حياة المفكر الجزائري محمد أركون أنه يتكلم ويكتب بشكل جيد اللغة العربية، ورغم ذلك يتردد أنه لا يعرف من لغة الضاد سوى بضع كلمات فقيرة.. ويقال أيضاً إنه لا يعرف من الفكر الإسلامي إلا القليل الضحل، مع أنه متبحر إلى حدود مذهلة في تراثنا وفكرنا الإسلامي ويأخذ موقفاً نقديا يكاد يصل إلى حدود «العداء الفكري» في بعض الأحيان إزاء معظم ما يكتبه المستشرقون عن حياتنا الفكرية. والحق أن أركون يتألم كثيرا لهذه الصورة المغلوطة والشائعة عنه.. وأكثر ما يؤلمه أن المفكرين والباحثين الجادين في مصر على سبيل المثال يغضون الطرف عنه جملة وتفصيلاً.. وإلا فأين الدراسات التي تعالج فكره، أو الندوات التي يساهم فيها.

وفي ظني أن هذا الموقف من أركون قد لا يكون «موقفاً منه» بقدر ما هو سمة من سمات حياتنا المعاصرة التي أضحى فيها عدم الاكتراث بكل ما هو جيد ومفيد وجاد شيئا للأسف طبيعيا ومألوفا..

وأسباب هذا الظن كما أتصورها هي أن أركون باعتراف القاصي والداني يعتبر قيمة فكرية أساسية في حياتنا فضلا عن كونه بابا رئيسيا- من وجهة نظر مؤرخي الفكر يعبر بنا إلى عالمنا الفكري والإسلامي الرحب.

بمعنى آخر أن من يؤرخ لحياتنا الفكرية ليس بوسعه أن ينظر بنصف عين إلى إنتاج محمد أركون المتعدد والمتشعب في مجال الدراسات الإسلامية والعربية.. فالرجل أوقف حياته منذ بواكير أيامه على رسالة يحدها طرفان الأول هو التنقيب في تراثنا الفكري لإظهار جوانب العقلانية والإنسانية فيه. والثاني هو القيام بدور الوسيط الفكري بين الإسلام وأوروبا بهدف إجلاء الضباب أو الغموض أو سوء الفهم الذي يرين على حد تعبيره – على كلا الطرفين بسبب التوترات والصراعات السياسية.

وللإنصاف يجب أن نذكر أن كل من اقترب من محمد أركون أو عرف إنتاجه جملة وتفصيلا لابد أن يدرك على الفور أن هذه الرسالة لم تغب لحظة واحدة عن بال وخيال أركون عبر سنوات عمره السبعين.

فالكتابة بشكل عام عند أركون، وكتابة الفكر بشكل خاص ليست مجرد تسجيل أو تبليغ وإنما هو -كما يقول- تخريج للواقع في أسلوب شخصي طريف وأصيل وإنتاج فني يتسم بتفاعل خاص

بين فكر وواقع ولغة.

وهو يرى أن الفكر يختلف إدراكه للواقع باختلاف تكوينه الوجودي والوجداني والعلمي كما أن الواقع يتنوع بتنوع البيئة الجغرافية والاجتماعية والثقافية أما اللغة فتتفاوت بتفاوت ثروتها العلمية ومرونتها الأدبية ومنزلتها من الفصحى المكتوبة واللهجات الشفاهية.

ويؤمن أركون بأن كتابة المفكر تمتاز عن سائر الممارسات الكتابية، بما أن المفكر يركز اهتمامه على اختيار الألفاظ ليحولها إلى مفاهيم شاملة لمظاهر عديدة وخصائص ووظائف متنوعة يختص بها كل موضوع من موضوعات البحث.

ويقترب أركون أكثر وأكثر من ثورته الخاصة بالتاريخ الإسلامي فيذكر أنه يواجه صعوبات جمة منها أنه كمؤرخ للفكر الإسلامي في هذه المرحلة التاريخية الصعبة التي يطغى عليها الخطاب الأيديولوجي والرقابة السياسية والاجتماعية معا لايزال يتوقف ويعدل عن معالجة بعض الموضوعات ويتجنب المحاذير من استخدام الألفاظ والعبارات حتى لا يفسرها القارئ المسلم على عكس ما ينتويه من الإفادة العلمية وحتى يسلم - كما يقول- من تكفير من يجهل قواعد الفكر الحر ومن يسمح لنفسه أن يرتقي إلى مرتبة المفتى المجتهد وهو أبعد الناس عن هذه المرتبة.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن دور محمد أركون في فكرنا العربي المعاصر أن نشير إلى أن أول كتاب له كان بعنوان «الفكر الإصلاحي عند طه حسين».. وضعه عندما كان طالبا بجامعة الجزائر وكانت رغبته شديدة في أن يفهم ويقدم إسهام عميد الأدب العربي في تحديث الخطاب الإسلامي وتحديد مفهوم الدين ووظائفه في المجتمع، نقطة أخرى جديرة بالإشارة هي أن أركون كان ولايزال يحرص على أن تلتصق كتاباته بواقع المجتمعات التي ينتمي إليها وهي كما يحددها بنفسه المجتمع البربري الذي ولد فيه ثم المجتمع المغربي بدولة تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ثم الأمة العربية الناطقة باللغة العربية المنتجة للثقافة والأمة الإسلامية التي تمتد جغرافيا من إندونيسيا إلى المحيط الفرنسي الذي عاش فيه والأمة الأوروبية التي ستتحد عما قريب على أساس تاريخ وثقافة وفكر ساهم في تكوينها الإسلام والفكر العربي في مرحلته المبدعة.

أما الجانب الآخر من رسالة محمد أركون الفكرة فهي كشف زيف الصورة التي يعرفها الغربيون عن الإسلام فيرى أركون أن أوروبا لا ترى في الإسلام سوى مجرد طقوس عبادية واقعة تحت ضغط المراقبة الاجتماعية المتشددة أما البعد الفكري والروحي والحضاري للإسلام فهو شبه غائب والسبب من وجهة نظر أركون هو أن الاستشراق الكلاسيكي والأدبيات السياسوية المتسرعة والمنتشرة عن الإسلام والحركات الإسلامية في الغرب حاليا تزيد

للأسف من انتشار هذه الصورة عن الإسلام المجرد الذي يقف فوق الزمن والتاريخ بمعنى الإسلام الأقنومي الذي لا يتأثر بشئ ويؤثر على كل شيء بل أن الأدبيات الاستشراقية تضفي ثقلها العلمي على هذا التصور السكوني الجامد عن الإسلام والمسلمين ماضيا وحاضرا..

يبقى أن نذكر أن محمد أركون هو رمز عربي إسلامي أنضجته أرض الجزائر مثلما أنضجت من قبله مالك بن بني صاحب «الظاهرة القرآنية» وإذا كان هذا الأخير أتيح له أن يُعرف وينتشر في مصر قبل أكثر من ثلاثين عاما فليس أقل من أن يأخذ هذا الرجل «محمد أركون» فرصته هو الآخر.. لأنه لا معنى لأن يكون فكره معروفا في أوربا وغالبية دول العالم الإسلامي بينما يظل غائبا أو بالأحري مغيبا في مصر.

لنا الله في ثقافتنا ومثقفينا

أسعدني كثيرا أن أجد (ضمن برنامج محاضرات وندوات معرض الكتاب) قبل سنوات اسم المفكر الجزائري محمد أركون وقدرت للقائمين على تنظيم المعرض هذا الصنيع ليس فقط لأن هذا الرجل (محمد أركون) هو مفكر إسلامي من الوزن الثقيل وتعتبر مؤلفاته التي تصدر بلغات مختلفة «عتبة» أساسية للولوج إلى حياة العرب والمسلمين (القديمة والمعاصرة..) ناهيك عن أنه بعد أن بلغ من العمر عتياً تفرغ للمحاضرات التي يلقيها في جامعات العالم.. لكنني فوجئت بأن صاحب الدعوة ليس معرض الكتاب وإنما المركز الثقافي الفرنسي بالقاهرة الذي يشارك بجناح عامر كعادته ضمن هذه التظاهرة الثقافية السنوية..

.. وأحزنني أن تفلت هذه الفرصة من يد (رئيس الهيئة العامة للكتاب) وقتئذ خصوصاً أنه من أكثر العارفين بقدر هذا المفكر العربي الكبير.. فلقد عاش في باريس عدة سنوات عندما كان مديرا لمعهد العالم العربي، وكذلك أركون كان يعيش في مدينة النور أيضاً..

وبالقطع لابد أنه قد التقاه أكثر من مرة في لقاءات أو ندوات أو محاضرات داخل المعهد..

أيا كان الأمر لقد جاء الرجل إلى مصر، وألقى محاضرته وسط مرتادي الجناح الفرنسي وقلة ممن يعرفون محمد أركون.. وانشغل -يالأسف- المعرض عنه تماما مكتفياً بالضجيج الذي افتعله - بصورة مبالغ فيها حول حضور الكاتب التركي أو رهان باموك!! الذي تضاءلت بجواره هذا العجيج المفتعل قامة أركون وآخرين!

وكنت تساءلت أكثر من مرة عن سبب تجاهلنا لمحمد أركون فلم أجد جواباً غير الإهمال، واللامبالاة، وفقداننا لحاسة التمييز. فهذا الرجل - شئنا أم أبينا - هو أستاذ أساتذة الفلسفة الإسلامية في العالم اليوم، وقد درس على يديه مئات من الطلبة العرب والمسلمين، أما مؤلفاته التي تزيد عن الأربعين، ومحاضراته وتبلغ بضعة مئات فلقد استفاد منها الملايين دون أدنى مبالغةً ويكفي أن نعلم أن إنتاجه العلمي هو محطة أساسية لكل من يفكر أن يعرف دقائق الفكر والفلسفة الإسلامية.. لقد تجاهلنا هذا الرجل مع أنه «منّا» و«عنوان» لمرحلتنا، وأستاذ لنا ولأولادنا وللأجيال المقبلة.. وأفكاره شديدة العصرية، فهو يركز على «مبدأ المواطنة» ويرفض فكرة تديين السياسة، وقديماً اتهمه عبد الرحمن بدوي (فيلسوفنا الراحل) بأنه أعطى للعلمانية كارت مواطنة في بلاد الإسلام.. وداخل الدين

الإسلامي.. ولقد انسحب هذا الإهمال من المعرض إلى وسائل الميديا فلم يبرز فيها إلا عَرضا وبين الأخبار الثقافية الشريدة التي تتحدث عن برامج المعرض.. أهمله التليفزيون، ولعل المرة الوحيدة التي استضافه فيها كان قبل أكثر من عام وعبر شاشته الفضائية بمبادرة شخصية من المعد المثقف أيمن عوّاد.

.. أقطع أننا سنندم يوما أن أركون كان لنا، وبين ظهرانينا، على ضفاف النيل، لكننا لم نجالسه أو نناقشه كما ينبغي.

مرة أخرى أقول إن الأجواء الإصلاحية التي تعيشها مصر اليوم يباركها محمد أركون، ويراها خطوة مهمة وضرورية وكان لابد أن تبادر بها مصر لأن الدول العربية سوف نحذو حذوها كما هي العادة التي يعرفها التاريخ..

.. ويقدر أركون لمصر مكانتها وريادتها، ويشدد على مدنيّة دولتها، ويطالب الجميع بمواجهة الفكر الانتهازي.

ويعتبره الغرب -كل الغرب- المرآة الحقيقية للفكر الإسلامي المعاصر..

وسؤالي هو: لماذا لم نفطن لهذه المكانة التي يحتلها محمد أركون في العقل الأوروبي..

ولماذا أهملناه -عن عمد أو جهل- مع أن فكره يخدم كثيرا هذه

الصفحة الإصلاحية التي تكتبها مصر وتناضل من أجل أن تتحقق بنقاء وبعيداً عن مناورات الإخوان وفكر الجاهلية.. ولماذا كشفنا قصور فهمنا، وعوراتنا الفكرية بهذه الدرجة الفاضحة؟

.. إنها مصيبة يا قوم أن يمر من بيننا المفكر الكبير محمد أركون دون أن ندري، وكأن شيئاً لم يكن.. لنا الله في ثقافتنا ومثقفينا!

النهضة العربية.. مالها وما عليها

الدكتور محمد أركون هو -بلاشك- أحد أبرز الأسماء اللامعة في حياتنا الثقافية المعاصرة.. والمعيار هنا، ليس كم نتفق معه وكم نختلف، ولكن.. ما استحدثه بالأحرى ما طبعه من مناهج في الدراسة والبحث خصوصاً في الفكر الإسلامي.. فمؤلفاته عديدة في هذا المجال، ولعله من القلائل الذين يثيرون - ربما على الرغم منهم - ضجة مع كل كتاب يصدر له.

وفي تصوري أن اسم هذا الرجل سيظل علامة مضيئة على طريق البحث العلمي النزيه [في إطار بحثي الدائم حول إشكالية النهضة العربية التقيت به في مكتبه بجامعة السوربون.. وأطلعته على ما تحوي جعبتي من أسئلة واستفسارات.. فاستهل إجاباته معي بمقولة تحمل كثيراً من أمارات: الأمل والتفاؤل.. قال: إنه من الخطأ الاعتقاد بأن النهضة كأفكار وكآليات - في حالة خصام مع منطقتنا العربية فالصحيح أننا نتنفس حاليا مناخاً نهضوياً منذ أواخر القرن الماضي وحتى الآن.. وأن تاريخنا المعاصر زاخر بجهود رجالات رواد عبّدوا الطريق، وتقدموا المسيرة النهضوية في ميادين الأدب

والفكر والدين.. وأنه من الظلم لأنفسنا أن نلغي من حياتنا -بأحكام مُتسرعة وغير مسؤولة- ومضات وإشراقات نهضوية رائدة ماتزال تأتي أكلها حتى الآن.

لكن إذا شئت الدقة - والكلام دائماً للدكتور محمد أركون.

- فيمكن أن ننطلق من القول بأن النهضة لاتزال -تمثل لدينا- مشكلة تاريخية، بمعنى أننا لم ندرس بعد -دراسة تحليلية نقدية- ظواهر المجتمع العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وأرجو ألا يُفهم من ذلك أنني أنكر أن هناك دراسات عديدة قد أُنجزت على صعيد رصد التطور السياسي والظواهر الثقافية والفكرية، وإن كنت أرى أن معظم هذه الدراسات لا تطرح القضايا التاريخية على أساس جذري.

ثم استرسل د. أركون موضحاً فكرته وقال: أعنى أننا عندما أرّخنا لتطورنا السياسي استطعنا أن نُسقط من حساباتنا الأُطر الاجتماعية الأخرى. فاكتفينا مثلاً بإيراد أسماء الأمراء والسلاطين والحوادث السياسية الهامة التي تتصل بأعمال الدولة. دون أن نعطي اهتماما - ولو يسيرا - ما يحدث في الميادين الأخرى.

فمؤرخ الأدب يؤرخ فقط للأدب. ومؤرخ الحياة الدينية يؤرخ للعلماء ورجال الدين، بينما مؤرخ العلاقات مع الغرب لا يهتم إلا بسرد الحوادث الهامة المرتبطة بتلك العلاقة... الخ.

وبالتالي يبدو لي أن ما نسميه نهضة أنما هو ليس إلا إبراز التفاوت الشاسع بين التطور الفكري والمدني الذي كان قد بلغ أوجه في المجتمعات الأوروبية خصوصا في فترة ما بعد الثورة الفرنسية الكبرى، والمجتمعات الإسلامية التي كانت قد تفككت نظمها الدولية، وفقدت اتصالاتها بالعهد الكلاسيكي للفكر الإسلامي والثقافة العربية كما نعرفها بين القرنين الأول والسادس للهجرة.

ثم لخص فكرته وقال:

لذلك يجب علينا أولاً أن ندرس تاريخ هذا التفكيك لنفهم كيف كانت الأطر الاجتماعية في أواخر القرن الثامن عشر، إذ كانت الحوادث الطارئة في أوائل القرن التاسع عشر لا يمكن أن تؤثر على المجتمعات ككل.

وكان الاصطدام مُنحصراً في البيئات الضيقة والجماعات المحدودة في المدن كالقاهرة ودمشق وتونس والجزائر وغيرها من المدن العربية الهامة.. خصوصا أن تلك المدن لم تكن تحافظ على ما كانت عليه من الازدهار الفكري والثقافي والفني، والسياسي.

- بالطبع هناك فروق عديدة إذ ليس بمقدورنا –على كل حال- أن نتكلم عن نهضة عربية مثلما يتكلم الأوروبيون عن نهضتهم. لأن مفهوم الدين في أوربا يدل على تيارين قويين قد انبثقا عن المجتمع الأوروبي نفسه وهما:

- تيار العقلنة وحرية الفكر التي تُطبق حتى على التقاليد الدينية والنصوص المقدسة

- أما التيار الثاني والذي يؤكد التيار الأول ويرتبط به فهو تيار التحرر الثقافي والفكري من سلطة الثقافة الكاثوليكية كما تفرضها وتراقبها الكنيسة ذاتها.

هذان التياران في أوروبا مازالا يزدهران ويقويان وهما بطبيعة الحال – الأب الشرعي – للتيار الفكري الحديث المعروف في القرن الثامن عشر بفكر الأنوار الذي أدى إلى الثورة العظمى التي حدثت في فرنسا وشملت المجتمعات الأوروبية.

لقد اعتدنا أن نعتبر هذه الثورة ونفهمها كثورة سياسية تدعو إلى احترام حقوق الإنسان، وإقامة جمهورية في محل النظام الملكي. ولئن كنت أوافق على هذا الفهم إلا أنني أرى أنه يجب ألا ننسى أن هذه الثورة هي ذاتها الثورة الفكرية والنفسانية التي غيّرت تغييرا جذرياً نظرة العقل إلى الوضع البشري وإلى العالم وإلى طرق إنتاج المعرفة وتصحيح هذه المعرفة بوسائل فكرية حديثة.. وهو الشيء الذي – للأسف الشديد– لم نفكر فيه بعد في الفكر الإسلامي –وهو ما يبرر– في ذات الوقت – القول بأن ما نسميه نهضة عندنا ليس إلا عددا من الصدامات السياسية والثقافية بين جوانب «سطحية» من التفكير الغربي كما وصفناه، وجوانب سطحية أخرى ومتفككة من

الفكر الإسلامي الزاهر.

يجب أن نكـون –في كـل الأحـوال– موضـوعيين ومُنصـفين لجماعة الباحثين والكُتّاب والمفكرين العرب في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، إذ لا شـك أن هـؤلاء النفـر قـد بذلوا جهوداً متواصلة وناجحة في تقديم آراء حديثة وعلوم جديـدة، تلقّوها في الجامعات الغربية وهضموها وأعطوهـا صـبغة عربيـة ثـم كيّفوها – في حدود إمكانيـاتهم – مـع الوسـائل المتـوفرة في زمـنهم بالمجتمعات العربية ومتطلباتها.

إلا أننا يجب أن نعترف – ونحـن هنـا لا نُـدين أو نـدافع وإنمـا نرصد ما حدث تاريخيا – بأنهم لم يتنبهوا إلى أمر مهـم – لم يتنبـه إليـه الغربيون أيضا – وهو ما يسمى بـ«المثالية» من جهة وبـ«الوضـعية» من جهة أخرى..

فكان المفكـرون العـرب يطبقـون العلـوم الوصـفية في إطارهـا الغربـي دون أن ينقـدوها نقـدا فلسـفياً كمـا نفعـل ذلـك الآن بعـد الخمسينيات والستينيات من هذا القرن.

– ولذلك ألح على أننـا يجـب أن نقـوم بمـا لم يقـم بـه هـؤلاء المفكـرون وهـو التمييـز الفكـري بـين الحداثـة الكلاسـيكية كمـا ازدهرت في الغرب بين القرنين السادس عشر والنصـف الأول مـن القرن العشرين، والحداثة المعاصرة بعد الخمسـينيات والسـتينيات

التي تعتمد على النقد العلمي والفلسفي لجميع العلوم التي ازدهرت في فترة الحداثة الكلاسيكية.

- كما يجب علينا أيضاً أن نلتفت إلى ما ينقص فكرنا العربي المعاصر خصوصا ما يتعلق بالتهيؤ الفكري والعلمي حتى فيما كان أصحاب النهضة قد انتبهوا إليه واهتموا به. أعني بذلك أن رجال النهضة كانوا يهتمون مثلاً بعلم الفيلولوجيا أسوة بزملائهم في الغرب إلا أننا قد أهملنا هذا العلم كثيراً في هذه الأيام على الرغم من أنه مفيد جداً في دراستنا للتراثيات.

[ولئن كنت أذكر هذين المثالين فلأنهما من الأهمية بمكان في تجديد فكرنا العربي المعاصر ولإيقاف التيارات الأيديولوجية الجارفة التي تستغل مفهوم التراث لأغراض «مخيالية» أكثر مما تعتني بتقديم هذا التراث في صورته الفكرية والثقافية الجميلة والثرية.

- لابد أن نعترف بأننا نعيش في «نهضة ناقصة» فالمجتمعات والثقافات قد تطورت وازدهرت تيارات فكرية جديدة اعتنى بها كثيرون، لكن هذا كله مايزال ناقصا إذا قسناه بحاجات المجتمعات العربية المعاصرة، وإذا قسناه أيضا بالمشاكل الجديدة التي لم تكن موجودة في عصر النهضة وظهرت فيما بعد، ومن ثم يجب أن نواجهها بالأسلحة المناسبة لها كمشاكل جديدة وليس بالأسلحة

التي كانت تستعمل في القرن التاسع عشر.

وأيا كان الأمر فلابد أن تكون لدينا الشجاعة للقول بأننا في العصر الراهن لا نسير على نفس الطريق الذي سار عليه رواد النهضة، أو إن شئت فقل لقد تباطأنا كثيرا.

وختم د. محمد أركون أستاذ تاريخ الفكر الإسلامي بجامعة السوربون حديثه معي وقال: يجب علينا نحن العرب أن نُعيد النظر في تاريخ مجتمعاتنا أثناء السنوات الثلاثين الأخيرة. إذ في هذه الفترة قد وقعت تغييرات جذرية أدت إلى ظهور مجموعة من الظواهر والإشكاليات الضخمة التي تقف حجره عثرة في طريق مسيرتنا النهضوية..

العنصرية.. إلى أين؟!

العنصرية –في رأيي– ظاهرة موجودة في كل المجتمعات التي تنحدر عناصرها من أصول وثقافات ولغات مختلفة. والطبيعي جدا أن ينزعج أبناء البلد الأصليون عندما يجدون أن عناصر أخرى أخذت تزاحمهم وتنافسهم في المناصب والخدمات التي يوفرها مجتمعهم. أي أن شعورهم بالتهديد في هذه الحالة ليس مستغرباً.

وعندي ان العنصرية –تاريخيا– ترجع إلى التصورات التي ترسخ في مخيلة الناس فيما يخص الاختلافات الدينية، فالحروب الأهلية التي عرفتها فرنسا مثلا كانت عنيفة لأسباب دينية مع أن الفرنسيين في القرن السادس عشر كانوا من أصل واحد! وهو ذات الشيء الذي يحدث بين أناس آخرين يتقاتلون لأسباب دينية أو سياسية على الرغم من أنهم ينحدرون من أصل واحد.

معنى هذا أن العنصرية ليست إلا مجموعة من التصورات التي لا تتعلق بالعنصر فقط ولكن تتعلق أيضا بالأخلاق والعادات التي تختص بها كل جماعة في مجتمع ما.. والاصطدام بين العناصر يرجع

سببه أيضا -في رأيي- إلى المنافسة التي توجد في جميع المجتمعات من أجل السلطة.. كل هذا قد يُقدم في لغة خاصة تستعمل مفهوم العنصرية مع أن التوترات ترجع إلى أسبابا غير عنصرية.

أما بالنسبة لوجود العرب والمسلمين في البلدان الأوروبية الذي بدا يزداد ويتسع في الفترة الأخيرة فيجب أن نرجع - ونحن بصدد تفسيره - إلى الأصول التاريخية القديمة في المنافسة بين الأديان المنزلة إذ نعرف أن الإسلام منذ ظهوره في المدينة كان له أن يواجه رفض اليهود والنصارى، إذ كان الإسلام ينافس هذين الدينين.. باستغلال رموز دينية مشتركة كالوحي والنبوة والميثاق أي العلاقات بين الإله الذي يخاطب البشر عن طريق الأنبياء وبين الشعوب التي اختارها ليبلغ كلامه لكافة الناس بواسطتها.

هذه المنافسة في استغلال الرموز الدينية الرئيسية لم تزل تزداد بين أهل الكتاب طوال القرون ولم تزل تتفاقم لأسباب سياسية واقتصادية إذ كانت الشعوب التي تعيش حول البحر المتوسط لاتزال تتنافس لاحتكار السيادة وموارد الأرزاق في هذه المنطقة.. ولذلك نجد أسبابا كثيرة. وقديمة تدفع كل أمة إلى أن تتظاهر بالقوة والسلطة والتغلب على الأمم الأخرى، فالمسلمون مثلا يعتمدون على القول «إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين» والمسيحيون يعتمدون على القول «أن خارج الكنيسة لا نجاة الناس» وبهذه الأفكار الثيولوجية التي

كانت تلقن في المجتمعات الدينية من جانب العلماء وفي جميع المدارس وفي الخطب الدينية قويت التصورات التي نعبر عنها اليوم بالمواقف العنصرية.

وهذا النوع من الرفض المتبادل بين أمم أهل الكتاب لم يزل يسود إلى يومنا هذا فيما يلقن لأبنائنا في المدارس الرسمية باسم التعليم الديني.. وهذا يوجد عند المسلمين وعند المسيحيين وعند اليهود على حد سواء.

معنى هذا أننا لم نجد بعد الطريقة العلمية السليمة لنقدم لأبنائنا التقاليد الدينية في محتواها الإيجابي الذي يدعو إلى التسامح والأخوة بين الناس أيا كان دينهم أو مذهبهم الفلسفي والسياسي.

هذا النوع من التربية المعتمدة على روح التسامح والتفاهم والتعلم والبحث النقدي لم نهتد إليه بعد. فالخطاب الديني التقليدي الذي يستعمله جميع أهل الكتاب مبني على أطر.

«العلمانية» ليست حلاً!

الدكتور محمد أركون هو مفكر عربي معاصر من الوزن الثقيل، وأحد أبرز دعاة العقلانية في فكرنا العربي.. ثم هو عتبة أساسية من عتبات الولوج إلى فهم حياة العرب والمسلمين قديماً وحديثاً.. مؤلفاته العديدة في الفكر والحضارة الإسلامية تملأ أرجاء كبريات المكتبات في العالم بمختلف اللغات، ومحاضراته في الجامعات الإسلامية يأتي إليها الدارسون من كل فج عميق.. وهو أحد الأسماء المثيرة للجدل في كل الأوساط فبعض العرب يحسبونه على الفكر الاستشراقي الغربي، ويصنفون كتبه «النقدية» في قائمة الكتب الصعبة وعلى رأسها كتابه الشهير «نقد العقل الإسلامي» الذي يلعب فيه الدور الذي سبق أن لعبه الفيلسوف الألماني (عما نويل كانت) في كتابه «نقد العقل المحض».. بينما يراه البعض الآخر مؤسسة أكاديمية وبحثية بمفرده، فقد تتلمذ على يديه في جامعات أوروبا عشرات الباحثين، وأدار وأشرف على مئات من ملفات البحث المهمة.. ثم هو -فوق كل ذلك- أفضل من يقدم الإسلام الصحيح للأوروبيين لأنه درس منهجهم، وتعلم -ثم عمل لاحقاً- في

جامعاتهم..

أما أبحاثه فقد نحت بالدراسات الإسلامية منحى جديداً عصمها من تجنيات المستشرقين والباحثين المغرضين كما أنقذها من براثن المتزمتين الذين يسيؤون للدين ومهنة البحث العلمي على السواء..

وهو -في كل الأحوال- صاحب فكر واضح، ينطلق من روح «النقد العقلاني».

وفي هذا الحوار نتعرف على الرجل وجانب من أفكاره حول «الصحوة الإسلامية والعلمانية»، والتراث..

- كثر الحديث في هذه الأيام عن «الصحوة الإسلامية» ما هو تحديدك الدقيق لهذا المصطلح، ثم هل تعني «الصحوة» أنه قد سبقها بالضرورة «غفوة» في الفكر الإسلامي؟

الصحوة الإسلامية، هي عبارة قد أُطلقت منذ بضع سنين على الحركات الجديدة التي نشاهدها في المجتمعات الإسلامية، وهي حركات تستهدف إحياء القيم الإسلامية وتطبيقها في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، وظهرت حركات توصف بحركات سياسية ولكنها على كل حال تستعمل ثقافة دينية وشعارات دينية للإلحاح على ضرورة استرجاع الإسلام كقاعدة أساسية في تدبير أمور الناس في المجتمع وهذه الحركات تستهدف أيضا من وراء هذا

الادعاء نقد المسؤولين أو أولي الأمر كما يقال الذين يتحكمون في البلدان الإسلامية دون أن يستلهموا رأي تلك الحركات، ما هو إسلامي أصيل.

وبعد أن تساءل الدكتور أركون عن الفرق بين «الصحوة» وبين ما عُرف عندنا منذ القرن التاسع عشر باسم «النهضة» أضاف يقول:

عندما نقارن بين ما يطالب به المسلمون المنتمون إلى هذه الحركات التي سبق وذكرتها. وما كان يطالب به المسلمون في القرن التاسع عشر والنصف الأول من هذا القرن، يصعب علينا أن نجد فرقا كبيراً، لأن المشكلة في الحقيقة تبقى قائمة، وهي اصطدام الإسلام كدين وثقافة وتاريخ بما نسميه الحداثة Moderniste.

ومما لاشك فيه أن هذه الحداثة قد فُرضت علينا من الخارج، فرضها الغرب من خلال نظمه الاقتصادية وطرقه في الإنتاج والمعاملة.. وهذه الطرق الجديدة استبقت ثقافة خاصة بالغرب. وهي ثقافة علمانية منفصلة عن الأصول الدينية للثقافة هذا هو الحدث الأعظم الذي جعل المسلمين يتساءلون عن معنى تاريخهم عندما يواجهون هذا التيار الجارف الذي بدأ يؤثر في جميع نواحي حياتنا منذ القرن التاسع عشر ولا يزال يبقى تأثيره القوى في وجداننا وفكرنا إلى يومنا هذا. واستطرد الدكتور أركون يقول:

لهذا أرى أن عبارة «الصحوة الإسلامية» إنما هي ترجمة للعبارة

الفرنسية Le revil de I'islam أطلقها الصحافيون الغربيون أخيراً عندما شاهدوا هذا الحدث التاريخي الهائل الذي حدث في إيران، وهذا يدل على أن العرب لا يستمدون من داخل تاريخهم ومجتمعاتهم المصطلحات اللائقة للدلالة على ما يحدث حقيقة عندهم بل يفضلون أن يتأثروا بما يقال عنهم في الصحافة الغربية، وينقلون أقوال المراقبين الغربيين ليصفوا أحوالهم. وعقيدتي أنه لاتوجد حاجة إلى استعمال كلمة جديدة، إذ إن ما أسميناه نهضة لم يُستكمل بعد، وعلينا في الوقت نفسه أن نواصل الجهاد والاجتهاد لنبلغ أسمى الأهداف التي كان قد تصورها وسعى وراءها المفكرون والمثقفون العرب منذ القرن التاسع عشر.

الحداثة الفكرية

• تحدثت عن تأثير الفكر الغربي على حياتنا منذ القرن التاسع عشر، ما هو حجم وقوع هذا التأثير؟ ثم هل صحيح أن بداية عصر النهضة العربية تبدأ مع غزو نابليون لمصر؟

- المؤرخون يتكلمون عن بداية النهضة التاريخية الجديدة للمجتمعات الإسلامية منذ أوائل القرن التاسع عشر عندما غزا نابليون مصر، ولكن في الحقيقة يمكن أن ترجع إلى ما وراء ذلك في القرن الثامن عشر. إذ كانت ثمة اتصالات بين الغرب من خلال ما عُرف بفلسفة الأنوار والدولة العثمانية، إلا أن هذه الـphilosophie de Iumiére، الدولة والأمم الإسلامية التي كانت تحت سيطرتها لم يكن حظها من التفتح الفكري يسمح لها بالاستفادة من الحداثة الفكرية التي كانت تخطو في الغرب خطوات سريعة خاصة بعد الثورة الفرنسية الكبرى. ولم تتأثر مجتمعاتنا الإسلامية في ذلك الحين إلا بالجانب المادي للحداثة، وتركت جانبا الجانب الفكري. وأكبر دليل على هذا الانفصال الذي عرفته مجتمعاتنا بين الحداثة الفكرية والحداثة المادية هو ما حدث لعلي عبد الرازق وطه حسين بمصر عندما أصدرا في عام ١٩٢٥، كتابيهما المشهورين

«الإسلام وأصول الحكم» و«الشعر الجاهلي» اللذين التزما فيهما تطبيق المنهاج التاريخي النقدي المعتمد على علم الفيلولوجيا، الذي اشتهر عند الغربيين منذ القرن السادس عشر، والذي استخدمه الأنسيون Les humanistes الغربيون في أحياء تراثهم اليوناني واللاتيني وعلى الرغم من أننا لم نكتشف هذا المنهاج الفيلولوجي الذي يعتبر منهاجاً أساسياً في قراءة النصوص القديمة قراءة نقدية تاريخية، إلا أن الأزهريين قد أنكروه على الرجلين «علي عبد الرازق و طه حسين» كما هو معروف من الضجة التي أثيرت حول الكتابين.

والسبب في ذلك، يضيف الدكتور أركون، يعود إلى أن هؤلاء الأزهريين لم يَطلعوا على الحداثة الفكرية ولم يهتموا بمعرفة المناهج التعليمية الجديدة التي أبدعها العلماء والمفكرون في مجال العلوم الإنسانية عامة.

وإذا علمنا أن هذه الحداثة الفكرية قد خطت الآن خطوة أخرى أعظم من الخطوات السابقة منذ القرن التاسع عشر خصوصاً في علم اللسانيات، وعلم الأنثربولوجي وعلوم التاريخ والاجتماع. لأدركنا مدى القصور الذي اقترفناه في حق تراثنا وفكرنا العربي والإسلامي إجمالاً.

- هل يعني هذا أن العالم الإسلامي لم يعرف في النصف الأول من القرن العشرين غير لون واحد من ألوان الحداثة وهو الحداثة

المادية؟

- لاشك أن بعض المفكرين استطاعوا أن يستوعبوا «الحداثة الفكرية» وعملوا على تنشيط حياتنا الثقافية من خلال عناصر هذا اللون من الحداثة، في مصر مثلاً، كانت هناك فئة من المثقفين والباحثين والكتاب استطاعوا من خلال تفتحهم الذهني أن يستوعبوا هذه الأفكار الطارئة على البيئة والثقافة الإسلامية وطفقوا يشرحونها ويبسطونها من خلال كتاباتهم، ويدعون إليها بحماس شديد في بعض الأحيان وبوعي وفهم في معظم الأحيان.

واستطرد أركون قائلاً اليوم تشهد الساحة العربية العديد من التيارات الأيديولوجية المناضلة ضد الإمبريالية الغربية وعلى الرغم من أنني أرى أن هذه المناضلة لابد منها فإن هناك أكثر من نقطة يجب أن أشير إليها:

أولا: إن هذه المناضلة، التي أكرر أنها ضرورية –يجب ألا نقف عندها بمعنى ألا تعدل بنا عن الإسراع في المساهمة الفكرية لإحداث الحداثة الفكرية، المرتكزة على أصالة الثقافة والفكر في الإسلام.

ثانيا: نضالنا السياسي ضد الغرب الذي يسيطر على نظمنا السياسية وحياتنا الاقتصادية كثيرا ما ينسينا ضرورة التسلح الفكري لا باسترجاع قيم تراثنا فقط، ولكن أيضا بالمساهمة الفعلية في تحديث العلوم المعاصرة، وتطويرها وتطبيقها في حياتنا الثقافية

والفكرية والاجتماعية.

ثالثاً: هنا أيضا يجب أن ألح على أن التعليم في مدارسنا الثانوية وأيضا على المستوى الجامعي لم يستوف جميع الشروط للنهوض بهذه المسئولية الفكرية والعلمية الجديدة، التي يفرضها علينا التطور السريع للمعارف والتكنولوجيا والعلوم الدقيقة وجميع ما يوصف اليوم بالحداثة الفكرية. بعبارة أخرى.. إذا نظرنا إلى البرامج التي تُعتمد في التعليم في الثانويات وحتى في الجامعات نلاحظ أن هذه العلوم الإسلامية الأصيلة لم تُدرس على الطريقة العلمية الصحيحة، لذلك نجد أن العلوم الإنسانية والاجتماعية التي ظهرت منذ الخمسينيات والستينيات تجددت مناهجها، وتجددت أشكالياتها فيما يخص جميع المشاكل المتعلقة بالحياة البشرية المجتمعية. هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية. للأسف. لم نزل تجهلها، ولم تزل طفيفة جداً في برامجنا التعليمية.

● «الشرق شرق، والغرب غرب، ولا يمكن أن يلتقيا» هذه المقولة التي كانت تعكس اتجاها فكرياً ساد فترة طويلة في الغرب الأوروبي، ومازال له أتباعه حتى اليوم، ما هو تعليقك عليها في ضوء دعوتك بضرورة مساهمة العرب والمسلمين في تحديث العلوم المعاصرة، وتطويرها وتطبيقها في حياتهم الثقافية والفكرية؟

- لا أؤمن بهذه العبارة، لأن تاريخ الثقافات يشهد عكس ذلك،

كما أنني لا أحبذ كثيرا هذا التصور الذي يعتمد على المباراة والمنافسة بين الجانب الإسلامي، والجانب المسيحي الغربي.

ولعل الفكرة التي عالجها كتاب المؤرخ فرناند برودل «عالم البحر المتوسط في عهد «فيليب» هي أفضل رد على القائلين بأن الشرق لا يمكن أن يلتقي مع الغرب، فالمؤرخ في كتابه يؤكد أن عالم البحر المتوسط قد تكون تحت تأثر تيارات ثقافية وفكرية ترجع إلى مصدرين:

(١) مصدر يوناني.

(٢) مصدر الأديان المنزلة.

وهذان المصدران قد عملا في تكوين الفكر الإسلامي قبل أن يعملا في تكوين الفكر المسيحي في القرون الوسطى، ثم الفكر الغربي.. الذي أنتج العلمانية. وإذا كان هناك خلاف بين الجانب الإسلامي والجانب الغربي فهو نفس الخلاف الذي كان موجوداً بين الغرب العلماني والغرب المسيحي في القرون الوسطى.

فالقطيعة إذن قطيعة فكرية ترجع إلى مكانة الدين في الحياة الاجتماعية والتاريخية، ومعروف أن معنى العلمانية بعدما حلت محل الدين في توجيه الحياة الاجتماعية والتاريخية، وتعويض الدين بالعلمانية، هي مشكلة فلسفية لاتزال قائمة في الغرب وعند المسلمين على السواء.

العلمانية ليست حلاً

• هل يعنى ذلك أننا يجب أن نواجه «العلمانية» بنفس الطريقة التي واجهها بها الغرب المسيحي؟

– الشيء المحقق أننا اليوم في مرحلتنا التاريخية الراهنة مجبورون أن نواجه نفس المشكلة الذي واجهه ولايزال يواجهه الغرب وهو معنى العلمانية ومعنى الأديان في تسيير حياة الإنسان في المجتمع. لا يكفي أن نردد أن الإسلام دين ودولة. قد يكون الأمر هكذا لكن يجب على المفكرين المسلمين أن يراهنوا على أن الدين والدولة يتماشيان ويعملان معا لابداع نظام سياسي أصيل يكون بديلاً لما عُرف في التاريخ من النظم السياسية.

– يمكننا أن نقول طبعا إن القرآن يلهم بهذا النظام المثالي الذي تتوق إليه عقول المسلمين وقلوبهم إلا أن تاريخ المسلمين منذ وفاة النبي «صلى الله عليه وسلم» يشهد بكل وضوح بأن هذا النظام المثالي الذي دعا إليه القرآن لم يُطبق قط. هذا سؤال قد طُرح منذ وفاة النبي ولم يزل مطروحاً إلى الآن، وهو هل في إمكان الإنسان أن يحقق في تاريخه النظرة المثالية أو الطوباوية التي يدعوه إليها القرآن؟ وإذا كان في مقدوره أن يحقق هذا المثل الأعلى فما السبيل إلى ذلك؟ وما

هي الشروط التي لابد منها؟ وما هي النظم الواقعية التي يجب علينا أن نبدعها إبداعاً خارجاً عن النماذج التي عرفناها باسم الديمقراطية في الغرب أو بأسماء أخرى عند غيرنا؟

- إذن نحن سائرون حتما إلى طريق العلمانية؟

- فلسفتي الشخصية تتلخص في أنه لا توجد حتمية في التاريخ. هناك طرق متشعبة لحرية الإنسان، الذي يمكنه أن يختار ما وسعه الاختبار.. إن السلوك الذي يؤدي إلى التصرف بحرية التفكير وحرية الإبداع والجرأة في الاختيار لا يكون إلا باحترام الإنسان كإنسان وأذكر هنا كلمة لأبي حيان التوحيدي يقول فيها: «إن الإنسان قد أشكل عليه الإنسان» ومن ثم وجب علينا أن نجتهد دائماً للتعرف على هذا الإنسان، حتى نحترم حقوقه كما ينبغي، وحتى نسير نحو المثل الأعلى الذي نتوق إليه على ضوء ما ذُكر في القرآن.

وأضاف الدكتور أركون يقول: فيما يخصني أرى أن الغرب قد دفع بقوى سياسية إلى تبني العلمانية ولكنه في الوقت ذاته لم يحل المشكل الفلسفي المتضمن في كل نظام مبني إما على فصل الدين عن الحكومة من جهة وإما على الخلط بدون تمييز بين الدين والدولة.

ولذلك أقول: إن مشكلة الدين والعلمانية لا تزال مطروحة لدى الجميع الغربيين والمسلمين على السواء، إذ هي مشكلة تؤدي إلى

مشكلة أخرى أعمق وأكثر صعوبة وهي مشكلة «المعنى» من الحياة البشرية، وهي بدورها مشكلة فلسفية أشهد أننا لم نعتن بها حق الاعتناء حتى الآن..

• ما هي الظروف التي دفعت الغرب على طريق العلمانية، وهل وُجدت ظروف مشابهة لها في تاريخ الفكر الإسلامي..؟

- نعلم أن الطبقة البرجوازية قد لعبت دوراً حاسماً في خلق النظام العقلاني، إذ هي التي نافست الكنيسة كطبقة اجتماعية واقتصادية قوية، حتى انتصرت عليها وأخذت منها في الحكم وفي الاقتصاد وعلى الرغم من أن هذه القوة الاجتماعية «البرجوازية» لم توجد قط في تاريخ الإسلام، كما وُجدت في الغرب إلا أن طبقة مشابهة قد ظهرت في القرنين الثالث و الرابع الهجريين ولعبت دوراً ما في عقلنة الثقافة الإسلامية، وهذا ما نشاهده في القرن الرابع عشر وخاصة عندما ظهرت تلك الفئة من المثقفين والمفكرين من جيل أبي حيان التوحيد ،وابن مسكويه وأبي سليمان المنطقي وغيرهم من الأدباء الفلاسفة أو الفلاسفة الأدباء.

إلا أن التطور التاريخي بعد القرن الرابع الهجري أدى بسرعة إلى فشل هذه الطبقة البرجوازية المعتمدة على التجارة ففشلت بفشلها التيارات العقلانية التي سادت في القرن الرابع الهجري ولهذا نرى مثلا أن المفكر الكبير المجتهد المبدع ابن رشد فشل فشلا مدهشاً

عند المسلمين إذ دُفن فكره في نفس العام الذي دُفن فيه جسمه لحملة فقهاء المالكية ضد الفلسفة والمتفلسفين، بينما أقبل المفكرون الغربيون بعد سنوات قليلة من وفاة ابن رشد على جميع مؤلفات هذا المفكر المسلم، فأمعنوا البحث في معرفة مناهجه في تفسير القضايا العقلية والدينية.

وليس صدفة أن يهتم القديس توما بفكر ابن رشد، بينما أهملناه نحن ولانزال نهمله إلى يومنا هذا.

- ماذا يطلب الدكتور أركون من المثقفين العرب في هذه المرحلة الراهنة؟

- مازالت صورة الإمام محمد عبده هي صورة المثقف الملتزم الذي أود أن يكثر أمثاله في حياتنا الفكرية، فقد كان من المثقفين القلائل الذين نظروا إلى الغرب بحذر من جهة وبجرأة ووعي من جهة أخرى لم يحتقر الفكر والثقافة الغربية، وحاول أن يتبنى ما هو صالح لتحديث عملية الاجتهاد ولتأصيل الإسلام في التاريخ الحديث.

ولاشك أن المثقف العربي اليوم يُطلب منه أن يقف من جميع المشاكل التي تطرح في مجتمعنا موقف الباحث والمجتهد والمعلم للأجيال المقبلة على أساس النقد الفكري القويم. لأننا نخضع إلى كثير من الأقوال التي لم نكلف أنفسنا المسؤولية لتصحيحها وأعني

بالمسؤولية الفكرية الحذر من تبني أي فكر دون أن نتحقق من موضوعيته وصلاحيته ليس فقط لمجتمعنا ولكن أيضاً لتحرير الإنسان كإنسان من جميع ما يعوق حريته وانطلاقه إلى إنجاز تلك النظرة الطوباوية التي دعت إليها الأديان والفلسفات والنظريات المعنية بشرف وكرامة الإنسان.

أركون... وبقايا ذكريات!...

«قد كنت أؤثر أن تقول رثائي» هذا هو الشطر الذي بدأ به أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدته التي أبّن بها زميله شاعر النيل حافظ إبراهيم، ولا أجد أفضل منه لكي أبدأ به كلمتي عن محمد أركون الجزائري الذي مات في باريس عن عمر يناهز الثانية والثمانين عاما.. وإن كنت أنسى كل ذكرياتنا وهو (أستاذي الذي علمني في السوربون) فلن أنسى ما حييت يوم بعث لي كتابه عن العرب في سلسلة «ماذا أعرف» ?que sais-je الشهيرة بإهداء قال فيه: إلى شيخ الصحفيين العرب أبعث هذا الكتاب!

وأذكر أنه جاء إلى القاهرة واستضافته القناة الفضائية المصرية في زمن رئاسة «ميرفت سلامة» التي خصصت له زمنا مفتوحا، وعندما حدثته عبر الهاتف وأخذت أناقشه فيما قال من أفكار، وما كان قد علمني إياه، أذكر أن الرجل قد بكي وكأنه لم يكن يصدق أن أحداً سوف يناقشه، كما أذكر أني قابلته يوم اختاره السيد عمرو موسى أمين عام جامعة الدول العربية من ١٠٠ شخصية عربية للتفكير في

مستقبل العرب والمسلمين بالخارج، وطلب إليّ أن يقوم بجولة في منطقة الحسين بالقاهرة لكنه بعد أن وجد أنه لا يستطيع عبور الشارع رغم أننا كنا حوالي منتصف الليل، وأذكر أنه هتف بمجرد جلوسه بالسيارة وسؤاله عن الأزهر الشريف والألف مئذنة: لقد عرفت لماذا سميت مصر بـ«أم الدنيا»!

في مكتبه بالسوربون.. أذكر المناقشات التي كانت تدور حول الإسلام والعلمانية التي كان يصر على أنها تأتي من كلمة علم «بكسر العين» وليس من العالم «بفتح العين».

رحم الله محمد أركون الذي كان يؤمن بالعروبة قولا وفعلا فهو جزائري لكن زوجته كانت مغربية أما ثقافته فكانت مصرية خالصة، وكان يكتب إنتاجه باللغة الفرنسية واختار صديقه هاشم صالح السوري الجنسية لكي يترجم له.

وقصة كتاب لم يكتمل..!

عندما ذهبت إلى باريس، كان ذلك قبل ثلاثين عاما كان اسم محمد أركون ملء السمع والبصر، وكانت الجامعات الفرنسية هي قِبلتنا التي نلتقى فيها صباحا ومساء، وأذكر أن أحدهم قد همس في أذني وقد بدا له إعجابي بأركون: لا تفكر في مجرد تسجيل الدكتوراه تحت إشراف مسيو أركون، فالرجل لا يحب العرب ويكره أصله العربي الجزائري..

وكانت هذه النصيحة الخبيثة كفيلة بأن تبعدني عن الرجل سنوات وسنوات، وعندما التقيت به لاحقا في أحد مؤتمرات المتوسطية الذي كان مركز الدراسات العربي الأوروبي من أوائل من اهتموا بها، وجدته أمامي يحمل أوراق في حقيبته كتلميذ مجتهد فسألته عن سبب كراهيته للعرب فأجابني بقوله: كيف أكره العرب وأنا منهم؟ ثم كيف أكره العرب وعندما بحثوا عن شخص يكتب عن العرب.. لم يجدوا سواي.. ثم لا تنس أن اسمي الأول محمد.. ولا أتساهل مع أولئك الذين يكتبونه خطأ فقديما كتبه بهجت النادي رئيس تحرير مجلة «رسالة اليونسكو» فصححته له وكتبت إليه

التصحيح بنفسي وقلت أنا اسمي الأول «محمد» على اسم صاحب الرسالة الإسلامية، أما اسمي الثاني وهو أركون لا «عركون» وهو اسم عربي أصيل ودرست في المدرسة الثانوية بوهران وكنت طالبا بكلية الآداب بالجزائر! ثم استطرد قائلا: في الحقيقة يبتعد عني الطلبة لأنني اشترط أن يملك الطالب ناصية اللغة العربية أولا ثم ناصية البحث العلمي ثانيا، وأريده أن يكون كحالي عندما كنت طالبا في الدكتوراه حيث كنت لا أتأفف وأنا أسير في حي المجاورين في الأزهر الشريف أو أضرب موعدا مع أحد الوراقين الذي يأتي إلى - وهو فرح سعيد - بأوراق مكتوبة عن ابن مسكويه، الذي درسته دراسة شاملة في الدكتوراه.. حرضني ما سمعته لأوجه عن سؤالى عن علاقته السيئة برجلين: الأول عبد الرحمن بدوي أستاذ أساتذة الفلسفة في عالمنا العربي، والثاني هو جاك بيرك صاحب أصدق ترجمة لمعاني القرآن الكريم فأجابني الرجل - وقد انفرجت أساريره - بعد أن تحلق حوله عدد من المؤتمرين، وقال: عندما يُذكر اسم بدوي أكاد أخر ساجدا لموهبته الربانية في تحقيق التراث العربي أما شخصه - قال ذلك وهو يضحك - فهو كريه إلى نفسي، أما بيرك فلقد طُبعت ترجمته أكثر من مرة في الجزائر -التي ولدت بها- ولست مع أولئك الذين يرفعونه إلى أعلى عليين (مع الصديقين والشهداء) إنه إنسان عادي، وكل ما هنالك أنه يمثل تيارا فكريا من حق الأجيال المقبلة أن تجتهد وأن تذهب أبعد مما ذهب إليه رغم أنه صاحب أول ترجمة أمينة -لأنه يحب الأدب، قال ذلك ثم شد حقيبته إلى

صدره، والتفت حوله، ثم استأذن في الرحيل.. تذكرت على الفور شارع المعبد الذي كان أركون يحب أن يسير فيه ثم الفندق الشهير الذي كان مولعا بالجلوس فيه والمخطط العام الذي كان يحيط بكل ما قدم في الفكر الإسلامي.. فقد كان - يرحمه الله - يريدني أن أكتب عنه كتابا.. وأذكر أنه في كافتيريا ذلك الفندق الذي يقع في ميدان الجمهورية قال: إنني أود أن تكتبه بلغة الكفاح المعروفة عن فترة عبد الناصر وحزب البعث والحركات القومية في المغرب: وتبدأه بفصل أول عن أركون يواجه الاستعمار وتشرح فيه لماذا اندفعت إلى دراسة موضوعات خاصة بالفكر العربي، وهي الأخلاق عند مسكويه والسبب هو رغبتي في أن أجد أسلحة أرد بها وأكافح بها الباحثين الغربيين الذين يتهمون الفكر العربي والإسلامي أي بأنه لم يتبع نزعة فكرية وثقافية تماثل النزعة المعروفة في أوربا ويضيف أركون: عندما قرأت ذلك في حي المجاورين في قاهرة الألف مئذنة، قلت في نفسي يجب أن أرد عليهم، ولذلك أريد أن أسميها: الأنسية العربية في القرن الرابع الهجري.

أما الفصل الثاني من الكتاب فهو أركون والإسلاميات التطبيقية وفيه يجيب أركون عن السؤال: لماذا توجه إلى دراسات تهتم بنقد العقل الإسلامي وليس العقل العربي والأسباب هي أني سمعت في الجزائر بعد استقلالها حديثا عن الاستقلال (أيديولوجي للفكر الإسلامي والثقافة العربية) أن الجزائريين ما كانوا يعرفون ولا

يزالون يهملون الثقافة العربية والفكر الإسلامي ويتحدثون أنهم عرب ومسلمون ويتشدقون بكلام العروبة والإسلام وهم جاهلون بالتاريخ فقلت كجزائري يجب على أن أساهم في تعريف الجزائريين: ما هو العقل العربي وما هو العقل الإسلامي. وإذا انجزت هذا العمل لابد أن يستفيد منه كل العرب وليس الجزائريين فقط ولإنجاز هذا العمل يقول أركون! اكتشفت أنه لابد أولا الإحاطة بعلوم الإنسان والمجتمع لأنها تزود بوسائل التفكير ومناهج البحث العلمي النقدي أولا ليس فقط من الناحية البحثية التاريخية كتاريخ، ولكن أيضا بإثارة أسئلة مرتبطة بالوضع الأيديولوجي الراهن في المجتمع الجزائري والمجتمع المغربي وفي المجتمع العربي بصفة عامة وما حديثي في هذا الفصل عن المجتمع الجزائري إلا لأني أعرفه كمنطلق فقط لأعمم البحث على جميع ما يهم الفكر العربي المعاصر وجميع العرب المعاصرين الذين يواجهون مشكلة ممارسة الحداثة الفكرية. وفي الفصل الثالث وهو بعنوان: أركون والبحوث القرآنية ويعتمد اعتماداً أساسياً على كتابه قراءات في القرآن وفي الفصل الرابع بعنوان أركون وتحديث العقل الإسلامي، وفيه يجيب أركون عن السؤال: كيف نُفعِّل الإسلام اليوم؟ وفي الفصل الخامس وهو بعنوان أركون والتاريخية وفيه يحدد أركون موقعه من التاريخ كعلم ومن التاريخ كحياة واقعية للمجتمع، وهناك مشكلات عديدة يواجهها كل باحث في التاريخ

وهي كيفية التعبير عما يتعلق بحياة الجماعات احتراما لروح العصر ومعاجم العصر، ورفضا لعمليات الإسقاط على العصور الماضية وأيضا مشكلة الفصل بين المعرفة القصصية والمعرفة التاريخية، وفي الفصل الأخير الذي حمل عنوان مصادر ثقافة أركون هناك أجاب عن قضية العلمانية والثورة الديمقراطية وقضية حقوق الإنسان وقضية النموذج الحضاري وقضية الفلسفة وعلم الكلام في الغرب وعند المسلمين، وقضية البحر المتوسط وقضية الأديان المقارن وقضية النتروبوليجيات العربية ونقد العقل السياسي. هذا ما قاله محمد أركون عن نفسه، وعن الكتاب الذي أرادني أن أكتبه، وما أعلمه أنه نشر فصولا باللغة الفرنسية عن الأنسية والإسلام، وعن منهجه في نقد العقل الإسلامي وعن طريقته في القراءات القرآنية، لكنه -يرحمه الله- لم يفكر في كتابة أعماله باللغة العربية ليس لأنه لم يكن يعرف اللغة العربية فقد كان لا يتكلم معي غيرها، وإنما لأنه كان يشعر بمرارة شديدة عندما يتجاهله الفكر العربي مع أنه ظل في السنوات الأخيرة البوابة الطبيعية للفكر العربي والإسلامي في جامعات الدنيا التي كان يُدعى فيها كأستاذ زائر واختتم بقولي: إن محمد أركون الذي رحل عن دنيانا عن عمر يناهز الثمانين كان يرى ضرورة مسايرة العصر الحديث لتبرئة الإسلام من تهمة أنه سبب التخلف، وأن تهميش الشباب في المجتمعات الإسلامية يزيد من حدة التوترات السياسية الحالية.

أركون إلى متى تتجاهله حركة الفكر في مصر؟!

من المفارقات المثيرة للدهشة في حياة المفكر الجزائري محمد أركون أنه يتكلم ويكتب بشكل جيد اللغة العربية، ورغم ذلك يتردد أنه لا يعرف من لغة الضاد سوى بضع كلمات فقيرة.. ويقال أيضا إنه لا يعرف من الفكر الإسلامي إلا القليل الضحل، مع أنه متبحر إلى حدود مذهلة في تراثنا وفكرنا الإسلامي ويأخذ موقفا نقديا يكاد يصل إلى حدود «العداء الفكري» في بعض الأحيان إزاء معظم ما يكتبه المستشرقون عن حياتنا الفكرية.

والحق إن أركون يتألم كثيرا لهذه الصورة المغلوطة والشائعة عنه. وأكثر ما يؤلمه أن المفكرين والباحثين الجادين في مصر على سبيل المثال يغضون الطرف عنه جملة وتفصيلا.. وإلا فأين الدراسات التي تعالج فكره، أو الندوات التي يساهم فيها؟

وفي ظني أن هذا الموقف من أركون قد لا يكون «موقفا منه» بقدر ما هو سمة من سمات حياتنا المعاصرة التي أضحى فيها عدم الاكتراث بكل ما هو «جيد ومفيد وجاد» شيئا -للأسف- طبيعيا

ومألوفا.. وأسباب هذا الظن - كما أتصورها - هي أن أركون باعتراف القاصي والداني يعتبر قيمة فكرية أساسية في حياتنا، فضلا عن كونه بابا رئيسيا - من وجهة نظر مؤرخي الفكر - يعبر بنا إلى عالمنا الفكري والإسلامي الرحب..

بمعنى آخر، إن من يؤرخ لحياتنا الفكرية ليس بوسعه أن ينظر «بنصف عين» إلى إنتاج محمد أركون المتعدد والمتشعب في مجال الدراسات الإسلامية والعربية.. فالرجل أوقف حياته منذ بواكير أيامه على رسالة يحدها منذ بواكير أيامه على رسالة يحدها طرفان، الأول هو التنقيب في تراثنا الفكري لإظهار جوانب «العقلانية» و «الإنسانية» فيه. والثاني هو القيام بدور الوسيط الفكري بين الإسلام وأوروبا بهدف إجلاء الضباب أو الغموض أو سوء الفهم الذي يريد على حد تعبيره - على كلا الطرفين بسبب التوترات والصراعات السياسية.

وللإنصاف يجب أن نذكر أن كل من اقترب من محمد أركون، أو عرف إنتاجه جملة وتفصيلا لابد سيدرك على الفور أن هذه الرسالة لم تغب لحظة واحدة عن بال وخيال أركون عبر سنوات عمره السبعين.

فالكتابة بشكل عام عند أركون، وكتابة الفكر بشكل خاص ليست مجرد تسجيل أو تبليغ وإنما هي -كما يقول- تخريج للواقع

في أسلوب شخصي طريف وأصيل وإنتاج فني يتسم بتفاعل خاص بين فكر وواقع ولغة.

وهو يرى أن الفكر يختلف إدراكه للواقع باختلاف تكوينه الوجودي والوجداني والعلمي. كما أن الواقع بتنوع بتنوع البيئة الجغرافية والاجتماعية والثقافية.. أما اللغة فتتفاوت بتفاوت ثروتها العلمية ومرونته الأدبية ومنزلتها من الفصحي المكتوبة واللهجات الشفاهية.

ويؤمن أركون بأن كتابة المفكر تمتاز عن سائر الممارسات الكتابية بما أن المفكر يركز اهتمامه على اختيار الألفاظ ليحولها إلى مفاهيم شاملة لمظاهر عديدة وخصائص ووظائف متنوعة يختص بها كل موضوع من موضوعات البحث..

ويقترب أركون أكثر وأكثر من ثورته الخاصة بالتاريخ الإسلامي فيذكر أنه يواجه صعوبات جمة منها أنه كمؤرخ للفكر الإسلامي في هذه المرحلة التاريخية الصعبة التي يطغى عليها الخطاب الأيديولوجي والرقابة السياسية والاجتماعية معا لا يزال يتوقف ويعدل عن معالجة بعض الموضوعات، ويتجنب المحاذير من استخدام الألفاظ والعبارات حتى لا يفسرها القارئ المسلم على عكس ما ينتويه من الإفادة العلمية، وحتى يسلم -كما يقول- من تكفير من يجهل قواعد الفكر الحر، ومن يسمح لنفسه أن يرتقي إلى

مرتبة المفتي المجتهد وهو أبعد الناس عن هذه المرتبة.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن دور محمد أركون في فكرنا العربي المعاصر أن نشير إلى أن أول كتاب له كان بعنوان «الفكر الإصلاحي عند طه حسين».. وضعه عندما كان طالباً بجامعة الجزائر وكانت رغبته شديدة في أن يفهم ويقوم إسهام عميد الأدب العربي في تحديث الخطاب الإسلامي وتحديد مفهوم الدين ووظائفه في المجتمع. نقطة أخرى جديرة بالإشارة هي أن أركون كان ولا يزال يحرص على أن تلتصق كتاباته بواقع المجتمعات التي ينتمي إليها وهي كما يحددها بنفسه: المجتمع البربري الذي ولد فيه، ثم المجتمع المغربي بدوله الخمس تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ثم الأمة العربية الناطقة باللغة العربية المنتجة للثقافة، والأمة الإسلامية التي تمتد جغرافيا من إندونيسيا إلى المحيط الفرنسي الذي عاش فيه والأمة الأوروبية التي ستتحد عما قريب على أساس تاريخ وثقافة وفكر، ساهم في تكوينها الإسلام والفكر العربي في مرحلته المبدعة.

أما الجانب الآخر من رسالة محمد أركون الفكرة فهي كشف زيف الصورة التي يعرفها الغربيون عن الإسلام، فيرى أركون أن أوروبا لا ترى في الإسلام سوى مجرد طقوس عبادية واقعة تحت ضغط المراقبة الاجتماعية المتشددة أما البعد الفكري والروحي

والحضاري للاسلام فهو شبه غائب، والسبب من وجهة نظر أركون هو أن الاستشراق الكلاسيكي «والأدبيات السياسوية» المتسرعة والمنتشرة عن الإسلام والحركات الإسلامية في الغرب حالياً تزيد للأسف من انتشار هذه الصورة عن الإسلام المجرد الذي يقف فوق الزمن والتاريخ. بمعنى الإسلام الأقنومي الذي لا يتأثر بشيء ويؤثر على كل شئ بل إن الأدبيات الاستشراقية تضفي ثقلها العلمي على هذا التصور السكوني الجامد عن الإسلام والمسلمين ماضيا وحاضرا.

●● يبقى أن نذكر في نهاية هذه العجالة أن محمد أركون هو رمز عربي إسلامي أنضجته أرض الجزائر مثلما أنضجت من قبله مالك بن بني صاحب «الظاهرة القرآنية» وإذا كان هذا الأخير، أتيح له أن يعرف وينتشر في مصر قبل أكثر من ثلاثين عاما فليس أقل من أن يأخذ هذا الرجل (محمد أركون) فرصته هو الآخر.. لأنه لا معنى لأن يكون فكره معروفاً في أوروبا وغالبية دول العالم الإسلامي، بينما يظل غائبا أو بالأحرى مغيبا في مصر.

إلى زعيم الصحافيين المجاهدين العرب بعاصمة المؤمنين، باريس المحروسة،

تحياتي الأخوية

وبعد فقد حاولت الاتصال بك مرارا ولم أجدك إذ حرمنا

الإضراب من اللقاء كما تواعدنا، فلذا أرسل لك النص الذي حفرته أملا أن يكون مجيبا لأسئلتك وأود أن تخبرني أين ومتى ستنشره. وإذا بدأ لك أن تصلح جملة أو تضيف شيئا فلك الأذن مني بذلك بشرط أن تبقي الأفكار والاتجاهات كما أردت أن تكون،

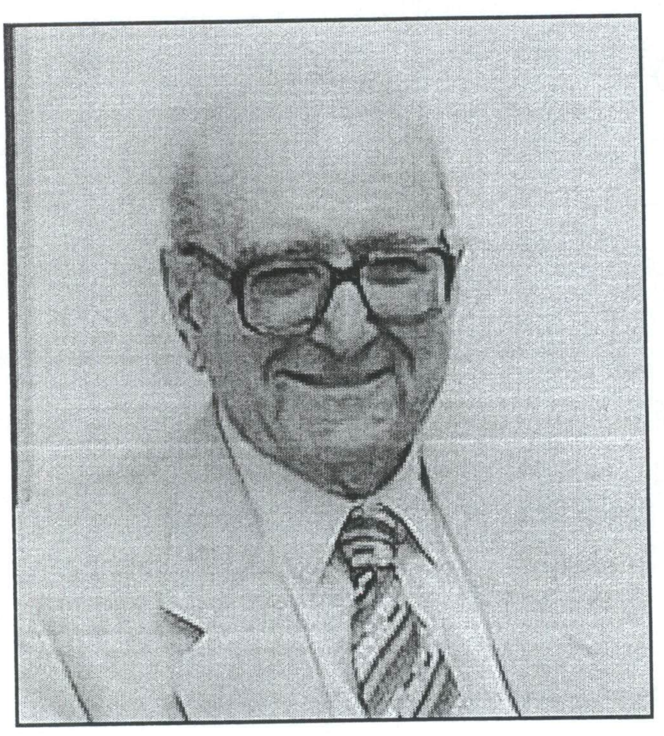
مع مشاعر المودة وتماني النجاح في عملك المهم المفيد

من العبد الحقير

إحدى رسائل محمد أركون

وبخطه الشخصي للمؤلف..

■ روجيه جارودي



مفكر فرنسي

(١٧ يوليو ١٩١٣ ـ ١٣ يونيو ٢٠١٢ م)

ولد في فرنسا، لأم كاثوليكية وأب ملحد. اعتنق البروتستانتية وهو في سن الرابعة عشرة، وانضم إلى صفوف الحزب الشيوعى الفرنسى، وفي عام ١٩٣٧ عين أستاذا للفلسفة في مدرسة الليسيه. خلال الحرب العالمية الثانية أُخذ كأسير حرب لفرنسا بالجزائر وفي عام ١٩٤٥ انتخب نائبا في البرلمان، وصدر أول مؤلفاته عام ١٩٤٦، حصل جارودي على درجة الدكتوراه الأولى سنة ١٩٥٣ من جامعة السوربون عن النظرية المادية في المعرفة، ثم حصل على درجة الدكتوراه الثانية عن الحرية عام ١٩٥٤ من جامعة موسكو، ثم طرد من الحزب الشيوعى الفرنسي سنة ١٩٧٠م وذلك لانتقاداته المستمرة للاتحاد السوفياتي

اعتناقه للإسلام

في٢ يوليو ١٩٨٢ أشهر جارودي إسلامه، في المركز الإسلامى في جنيف، وكتب بالمناسبة كتابيه «وعود الإسلام» و«الإسلام يسكن مستقبلنا».

معاداة الصهيونية

بعد مجازر صبرا وشاتيلا في لبنان أصدر غارودي بيانا احتل الصفحة الثانية عشرة من عدد ١٧ حزيران ١٩٨٢ من جريدة لوموند الفرنسية بعنوان معنى العدوان الإسرائيلى بعد مجازر لبنان وكان هذا البيان بداية صدام غارودي مع المنظمات الصهيونية التي شنت حملة

ضده في فرنسا والعالم. في عام ١٩٩٨ أدانت محكمة فرنسية جارودي بتهمة التشكيك في محرقة اليهود في كتابه «الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل»، حيث شكك في الأرقام الشائعة حول إبادة يهود أوروبا في غرف الغاز على أيدي النازيين .وصدر بسبب ذلك ضده حكم بالسجن لمدة سنة مع إيقاف التنفيذ.

فكره :

ظلّ ملتزما بقيم العدالة الاجتماعية التى آمن بها في الحزب الشيوعي، ووجد أن الإسلام ينسجم مع ذلك ويطبقه كما ظلّ على عدائه للإمبريالية والرأسمالية، وبالذات لأمريكا.

مؤلفاته بعد إسلامه :

رغم حداثة إسلام جارودي وكثرة المصاعب التى واجهته سواء من حيث اللغة أو الثقافة استطاع أن يؤلف العديد من الكتب منها :

- وعود الإسلام
- الإسلام دين المستقبل
- المسجد مرآة الإسلام
- الإسلام وأزمة الغرب
- حوار الحضارات

- كيف أصبح الإنسان إنسانا
- مستقبل المرأة وغيرها
- ١٩٩٧ الولايات المتحدة طليعة التدهور
- الإرهاب الغربي ٢٠٠٤

الأزهر يضر بالإسلام أكثر من أعدائه!!..

عندما اتصلت هاتفيا بالفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي لتحديد موعد لهذا الحديث كانت رغبته هي أن نتحدث في عموميات الفكر دون أن ندخل في التفاصيل التي تجعلنا - شئنا أم أبينا- وجها لوجه أمام مجموعة المشكلات المتفجرة التي تطفح بها البنية الإسلامية اليوم. فاحترمت رغبته، ولذلك جاء الحديث أشبه بالذكريات أو الانطباعات السريعة التي يلقيها صاحبها على عواهنها، لكنها لم تخلو - على كل حال- من آراء وانطباعات هام حول أول زيارة قام بها إلى مصر في عام ١٩٦٧، ورؤيته لدور رجل الدين، ثم فهمه الخاص كفيلسوف لحكمة الصيام، وأخيراً رأيه فيما يُسمى بميثاق الديانة الإسلامية في باريس.

قلت لروجيه جارودي:

• لنبدأ حديثنا بشهر رمضان.. هل لك ذكريات خاصة بالشهر المبارك؟

- لقد زرت معظم الدول الإسلامية، لكن لم تشأ أقداري أن

أمضى في إحداها هذا الشهر الكريم، لقد زرت مصر عدة مرات، وكذلك تركيا التي منحتني إحدى جامعاتها درجة الدكتوراه الفخرية، كما زرت الأندلس، وأسست فيها المتحف الإسلامي الوحيد هناك، والذي يحفظ تراث العرب والمسلمين ويتردد عليه أكثر من ١٠٠ ألف زائر سنوياً.

ثم أُتيح لي أن أؤدي فريضة الحج في المملكة العربية السعودية وأحمل لكل هذه البلدان ذكريات طيبة في صدري.

● كفيلسوف مسلم.. كيف ترى الحكمة من الصيام؟

- أولاً وقبل كل شيء، لابد من احترام روح الصيام ففى هذا الشهر المبارك يثبت الإنسان المسلم أنه يختلف عن الحيوان وباقى بالمخلوقات لأنه بوسعه أن يقطع صلته بغرائزه لفترة معينة. ومن ثم فهو سلوك ينشد السمو والصفاء. لكن ما يدهشني بحق هو أن الصيام في عدد من الدول الإسلامية ليس كذلك دائما هو على أقصى تقدير نوع من تغيير مواعيد الوجبات، فما أن تغرب الشمس حتى يهرع الصائمون إلى الموائد التي اصطف عليها الطعام ألوانا وأشكالاً، وكأن كل واحد منهم يملك في جوفه بطنين أو ثلاثة..

- وأذكر أن أحد وزراء الدول الإسلامية قد أكد لي أن كمية الطعام المستهلكة تزداد في شهر رمضان بنحو ٢٠٪ عن الكمية المستهلكة في غير شهر رمضان، وهو أمر غير صحيح لأن هذا معناه

أن الصائم يلغي وجبة الغذاء في الظهر ليعوضها أضعافا في وجبة العشاء. ثم هناك شيء آخر، وهو أن الكثيرين يتصورون -للأسف الشديد- أن الصيام هو مجرد الامتناع عن الطعام والشراب وكفى!

وهنا تحضرني واقعة حدثت في الجزائر في زمن الرئيس الراحل هواري بومدين الذي كان من سياسته القيام بنهضة صناعية ضخمة في بلاده، وحدث أن بعض العمال كانت تضطرهم ظروف العمل أن يبقوا أمام الأقران عددا من الساعات وهو ما يجعلهم في حاجة إلى شرب كميات من المياه لا تقل عن ٦ أو ٧ لترات يوميا. فكيف لهم أن يصوموا؟!

وأذكر أن مدير المصنع طلب السماح للعمال بالشرب أثناء شهر رمضان وإلا ماتوا من العطش.. وهدد المدير بأنه إذا لم يُسمح لهم بذلك، فسوف يُغلق المصنع! ثم يستطرد روجيه جارودي فيقول: انطلاقا من هذه الروح التي أعوّل عليها كثيرا، أتعجب من الخلافات التي تحدث كل عام بين الدول الإسلامية حول تحديد أول أيام شهر رمضان حيث تصوم بعض الدول اليوم بينما تصوم الدول الأخرى غداً.. والخلاف كما يقولون يرجع إلى أن رؤية الهلال لم تثبت للجميع في نفس اليوم، وسرّ تعجبي و أن البعض مُولع باختلاق الخلافات والمشاكل.. لأننا لو اتفقنا سلفا على أن قضية رؤية الهلال بالعين المجردة أصبحت صعبة في ضوء الظروف الجيولوجية

والبيئية (ضباب، تلوث...الخ) فليس هناك ما يمنع من الاعتماد على المراصد الفلكية. وفي هذه الحالة يكفي أن نتصل هاتفيا بالمسؤولين عن المرصد لنعرف بالتحديد ثبوت هلال رمضان أو شوال أو بقية كل شهر..

وقبل أن أنهي حديثي عن شهر رمضان، أود أن ألفت الانتباه إلى نقطة أخرى، تؤلمني، وتحزّ في نفس، وتتعلق بالصعوبة التي يتحدث عنها البعض بالنسبة لمواقيت الصيام في منطقة الأسكيمو حيث يصعب هناك تطبيق الآية الكريمة التي تقول:

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

فإذا طبقنا هذه الآية فهذا يعني أن يظل أبناء الأسكيمو صائمين طوال ستة أشهر متواصلة لأن تمييز هذا الخيط سيكون صعبا مع كثافة الضباب هناك.. أو أن الأسكيمو يجب أن تكون خالية من المسلمين.. وهو أمر غير منطقي!

بعبارة أخرى، إن الالتزام بحرفية النص هنا لن تكون مفيدة لأن الفاصل بين شروق الشمس وغروبها في الأسكيمو يمتد لستة أشهر ومن ثم لابد من الاعتماد في مثل هذه الحالة على روح النص ومطابقته لواقع الحال..

● ذكرت في بداية الحديث أنك زرت مصر كثيرا.. ترى متى كانت أول زيارة، وما منا سبتها؟.

– ترجع زيارتي الأولى لمصر عقب حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، وكانت بدعوة من الرئيس جمال عبد الناصر، وأذكر أنني عندما التقيت به، وجدت لديه أوراقا تضم أعمال المؤتمر الذي كنت نظمته في الجزائر عام ١٩٤٧ حول الإسهام العربي الإسلامي في الحضارة العالمية.. وقال لي عبد الناصر ضاحكا: إنني أعرفك قبل أن أراك!

وكان برفقته الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل الذي تولى الترجمة بيننا من اللغة الإنجليزية. ولعلي الآن أبوح بسر دبلوماسي وهو أنني عندما زرت مصر في هذه المرة، كنت مُكلفاً من قبل ناحوم جولدمان رئيس المجلس اليهودي العالمي (وهو رجل كاره للصهيونية وكان طلب من الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت أن يقوم بكسر اللوبي الصهيوني) بعرض اقتراحه الخاص بعقد لقاء مع الرئيس عبد الناصر، وجولدامائير.. على أن يتم ذلك من خلال شخص وسيط، وكان من المتوقع أن يحضره جولدمان بنفسه أو ينوب عنه شخص آخر.

ويستطرد روجيه جارودي قائلاً:

– مازلت أذكر أن «الباسبور» الذي كنت أحمله كان غريبا في

هذا الوقت، حيث كان يشتمل على تأشيرتي دخول، الأولى لإسرائيل والثانية لمصر، والتقيت في إسرائيل بعدد من الوزراء من بينهم أبا إيبان، وكان الجميع موافقين على فكرة اللقاء الذي كان من المقرر - في حالة حدوثه- أن يُعقد في يوغسلافيا.

لكن نقل لي الوزراء الإسرائيليين في اليوم التالي أن جولدا مائير رفضت الفكرة، وقالت إن مستر جولدمان لا يمثلنا، وإذا كان الرئيس عبد الناصر يريد أن يدعو أحد، فليدعوني أنا! ولذلك مات المشروع، وتوقفنا عن المضي فيه.

أما المرة الثانية التي زرت فيها مصر، فكانت في عام١٩٧٤ عقب تأسيس معهد حوار الثقافات في سويسرا، عندما قررنا عمل مجموعة أفلام تتضمن ملخصاً عن إسهام كل حضارة، واخترنا مصر، وكان يشاركنا الفكرة، المخرج الراحل شادي عبد السلام الذي كان سيقدم لنا فيلما حول إخناتون ونفرتيتي.. وللأسف توقف المشروع بسبب خلافاتنا مع التليفزيون الفرنسي.

كما زرت مصر مرة ثالثة بمناسبة صدور كتاب لي حول فلسطين قام بترجمته من الفرنسية إلى العربية الدكتور «شاهين» ثم توالت زياراتي تباعا للمشاركة في عدد من المؤتمرات والندوات.

• من هم أصدقاؤك في مصر، وهل تربطك صلة بمؤسسة الأزهر؟

- لي أصدقاء كثيرون، أذكر منهم المخرج الراحل شادي عبد السلام وعدد من الأطباء والمثقفين المصريين، لكن مشكلة اللغة تحول دون التواصل الدائم، حيث أتكلم معهم باللغة الإنجليزية. وبالنسبة للأزهريين، فلا أعرف إلا القليلين منهم، ولقد دعاني ذات مرة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق للمشاركة في إحدى الندوات التي ينظمها الأزهر. وأذكر أنني لاحظت أن الترجمة العربية لكلمتي لم تكن تسير بشكل طبيعي، ولا أعرف حتى الآن ما السبب؟! ولذلك تركت الندوة، وعلمت أن الطلاب قد غضبوا من أجلي!

وإجمالاً، أرجو أن أسجل هنا رأيا، ذكرته قبل فترة لأحد الوزراء المصريين، وهو أن بعض الأزهريين يضرون الإسلام أضعاف أضعاف ما يضره أعداؤه، فقبل فترة، أدلى أحد رجال الأزهر بتصريح للتليفزيون الفرنسي والسويسري حول قطع يد السارق.. وأعتقد أنه أضر بالإسلام في عشر دقائق، بمقدار ما يضر به أعداؤه مجتمعون في عشر سنوات!

والسبب هو أن رجال الأزهر يحظون بمكانة مرموقة في نفوس الجميع، ولذلك إذا تكلم واحد منهم ظنه الناس الراي الذي لا رأي قبله أو بعده! والمؤسف أن هذا الأزهري لم يكن على العلم والاستنارة، والوعى الضروري في مثل هذه المناسبات.

- ما رأيك في طه حسين؟.

- إني أحب هذا الرجل كثيرا، وإن كنت لا أتفق معه في كل الطروحات الفكرية التي قدمها. لكن في التاريخ المعاصر هناك من أحبهم أكثر منه، وأعجب بهم بشدة، وعلى رأسهم جميعا الإمام محمد عبده، هذا الرجل المستنير الذي لا أحسب أن الأمة الإسلامية قد رزقت بعده، بواحد يقترب منه علما وخلقاً.

صحيح لقد أثّر في بعض التلاميذ مثل رشيد رضا، وحسن البنّا، لكننا نفتقد هؤلاء جميعا اليوم.

● هل تعتبر حسن البنا تلميذا لمحمد عبده؟.

- بالطبع، لقد حمل البنا مشعل الاستنارة بعده، وإن اختلف عنه في بعض التوجهات مثلما اختلف رشيد رضا. لكن المحقق أن هؤلاء الرواد كانوا علامة مضيئة في الفكر الإسلامي المعاصر. وبالنسبة لحسن البنا، لقد أتيح لي أن ألتقي في جنيف بأحد أحفاده ويدعى طارق رمضان، وهو شاب مستنير وعقليته متفتحة كما التقيت بشقيق طارق، الذي أطلعني على نص هام كتبه حسن البنا، ويدعو فيه أن يكون بين مؤسسي جمعية الإخوان المسلمين، خمسة من الأقباط على الأقل!

لقد كان البنا رجلاً متفتحا، أين منه رجال اليوم؟ وفي هذه النقطة تحديدا، كان حسن البنا وفيا لأستاذه محمد عبده الذي يروي أن رجلاً جاءه ذات يوم وقال: أيها الإمام، إني اعتنقت الإسلام، فرد

عليه محمد عبده قائلاً: أنت أصبحت مسلماً، لكن لا تنس أنك ماتزال مسيحيا لأن الإسلام يعترف بجميع الديانات.

وهي نفس الفكرة - والكلام لروجيه جارودي - التي قالها يوما ابن عربي عندما قال: ليعلم أي مسيحي يعتنق الإسلام أنه لم يغير دينه!

هذه الأفكار قد جاءتني في التو واللحظة، وجعلتني أتذكر بأسى أنني قدمت استقالتي من عضوية المجلس العالمي للمساجد في مكة بسبب أن د. عبد الله ناصيف رئيس الجامعة الإسلامية العالمية طلب مني أن يكون العمل في إدارة متحف الآثار الإسلامية الذي أسسته في أسبانيا قاصراً على المسلمين!

ومازلت مندهشاً لهذا التمييز الجائز بين البشر انطلاقا من دياناتهم.. فالإمام محمد عبده رفضه قديما، وهاأنذا أرفضه اليوم.

• ما هو تعليقك على حادث الاعتداء الذي تعرض له، عميد الرواية العربية نجيب محفوظ من قبل المتطرفين وأدعياء الدين؟.

- لقد سمعت بالطبع عن هذا الحادث، لكني أفضل ألا أعطي تعليقا عليه، لأنه حادث يتعلق بأوضاع مصر الداخلية، وكلامي سيكون من قبيل الوصاية أو الاستعمار الفكري، وأنا أرفض ذلك. وموقفي هذا، هو الذي يجعلني أنتقد بشدة تصريحات وزير الداخلية الفرنسي شارل باسكوا الخاصة بالأوضاع في الجزائر عندما

قال: نحن لن نسمح بأن تتولى حكومة إسلامية السلطة في الجزائر؟.

وأندهش من هذا التصريح وأتساءل: بأي حق يرى باسكوا أنه يسمح أو لا يسمح؟ أليس هذا الأمر خاصا بالشعب الجزائري باعتباره شأنا داخليا؟.

كنت أتصور أن يقول باسكوا مثلاً نحن لا نرغب في أن تأتي حكومة إسلامية إلى السلطة في الجزائر، أو نحن لا نأمل في هذا.. إن كلاما كهذا سيكون مقبولاً، لكن استخدام صيغة «نحن لن نسمح» فهو أمر مقزز، ويجب على فرنسا أن تترك الشأن الجزائري للشعب الجزائري نفسه، ولا تقحم نفسها في أمور هي من خصوصيات الآخرين.

• علمت أنك شاركت في الاحتفال الذي نظمته وزارة الداخلية الفرنسية بمناسبة صدور ما يسمى بميثاق الديانة الإسلامية في فرنسا.. ما رأيك في هذا الميثاق؟.

- عن أي ميثاق يتحدثون؟ لقد دُعيت فحضرت، وانتظرت أن يعطيني أحد نسخة من هذا الميثاق لكي ألقي نظرة فاحصة على بنوده فلم يحدث، فسألت مدير مكتب وزير الداخلية وقلت: أين هذا الميثاق.. هل لديك نسخة منه؟.

فأجاب بأنه لا توجد في حوزته الآن أي نسخة وتصورت أن الشيخ دليل أبو بكر عميد المعهد الإسلامي سوف يُعطي رأيا في

الموضوع، فتبين لي بعد قليل أن أحدا لم يسأله، أو يوجه إليه الحديث، فظل الرجل صامتا كحالي إذ لم يتحدث غير وزير الداخلية.

ثم سألت الدكتور علي مُراد وهو أستاذ جزائرى مرموق في جامعة ليون، عن الميثاق، وهل رآه، أو ناقشه فأجاب: بأنه لم ير شيئاً!!

ولذلك كان طبيعيا أن تظهر معارضة للميثاق وترتفع الأصوات عالية بالاحتجاج. لكن ما أعلمه يقينا هو أن وزارة الداخلية الفرنسية هي التي صاغت الميثاق، وأعطته إلى أستاذ لغة عربية بجامعة أكس أن بروفانس هو مسيو برونو إيتيان لترجمته.. إن ما حدث هو شيء مؤسف!

سؤال أخير: مسيو جارودي.. لماذا لم تحاول تعلم اللغة العربية حتى الآن، ولماذا اخترت الإسلام دينا؟.

- هذا سؤال جيد لأنني أحتفل هذه الأيام بمرور عشر سنوات على اعتناقي للدين الإسلامي، وعمري الآن ٨٣ عاما، أي أنني عندما دخلت إلى الإسلام كان عمري ٧٢ عاما وهو عمر لا يسمح بتعلم لغة جديدة، ثم إنني كنت في ذلك الوقت مشغولا بإتقان اللغة الإسبانية التي كنت مضطرا للتعامل بها مع الكثيرين عند تأسيس المتحف الإسلامي هناك. أما سبب دخولي إلى الإسلام فهو لأن الدين الإسلامي دين تسامح يعترف وبقدر كل الأديان، ويتجه بتعاليمه إلى كل البشر..

● كلمة أخيرة تريد أن توجهها للمسلمين؟

– أقول لهم لا تخلطوا بين الشريعة والفقه.. ولا تعتمدون على التفسير الحرفي لآيات القرآن الكريم، لأن هذه الحرفية هي أكبر أمراض الفكر الإسلامي المعاصر.

محاكمة روجيه جارودي

الحق أن اسم هذا المفكر الكبير روجيه جارودي قد ارتبط في أذهان الكثيرين بالحرب الضروس التي يخوضها ضد خصومه.. إذ لا يكاد يمر وقت طويل بدون أن يكون هذا الرجل مهاجما أو موضع هجوم من منتقديه وهم كثر..

وقد شغلت معركته أو إن شئت تقل محاكمته الأخيرة أمام القضاء الفرنسي، الناس في مصر، وكادت تصبح مادة جدل يومي بين العامة والخاصة على السواء.. مثلما أصبح شعار «حرية، إخاء، مساواة» المعروف عن فرنسا – وبسبب هذه المحاكمة تحديدا- موضع شكوك كثيرة أمام محك الواقع العملي، بمعنى أن الكثيرين من المهتمين بقضية جارودي قد ارتاحوا إلى فكرة الفصل بين الشعار النظري، وتطبيقاته العملية.

وأيا كان الأمر، فما لم يعد خافيا على أحد أن تقديم جارودي إلى المحاكمة هو أمر يدفن حرية الفكر، ويصيبها في مقتل.. لأن جارودي -من وجهة نظر محاكميه- قد تحدث في المسكوت عنه

(بلغة الفلسفة).. أو خاض فيما لا ينبغي له الخوض فيه..

لكن الإنصاف يقضي بالقول إن اليهود وليس فرنسا هم الذين يحاكمون روجيه جارودي.. وهو ما أكده روجيه جارودي نفسه في المقابلة التليفزيونية المتميزة التي أجراها معه الزميل حازم فودة مراسل التليفزيون المصري في باريس عندما قال أن ١٠٪ من الشعب الفرنسي هم الذين يحاكمونه..

ولاشك أن التهمة الموجهة إلى جارودي تجرأ على كشف زيف الأساطير التي تغلف حياة اليهود الماضية والمعاصرة.. هى أنه فلنقل إن الرجل فضح الأكاذيب التي روج لها اليهود في كل وسائل الإعلام وداخل جميع المحافل الدولية حتى باتت - في رسوخها- أشبه بالحقائق التي لا يأتيها الباطل من أمام أو من خلف.

لكن الثابت تاريخيا أن جارودي ليس وحده أول من تحدث عن خرافة «الهولوكست» أو أول من فضح زيف كل ما يقال حول حرق الآلاف المؤلفة من اليهود في أفران النازي.. وإنما سبقه كثيرون من بينهم باحثون تقدموا برسائل علمية في جامعات فرنسا، ونالوا عنها درجة الدكتوراه لكن اللوبي اليهودي المبثوث في كل الأوساط بقرائن استشعاره كالإخطبوط قامت قيامته، وطالب بسحب هذه الرسائل، والطعن في محتواها، ومن ثم في الدرجات العلمية التي ترتبت عليها بل وطارد أنصار اللوبي اليهودي بعض هؤلاء الباحثين

في أماكن إقامتهم وحولوا حياتهم إلى جحيم! والسبب كما هو معروف أن عتاة وغلاة اليهودية لا يسمحون بأن تُهتك الاستار التي وضعها أجدادهم حول تاريخهم القديم والمعاصر..

وفي إطار هذا التعتيم الذي تمارسه الأوساط اليهودية حول تراثياتها جاءت هذه الحرب الشرسة التي يقف روجيه جارودي شامخاً وسط لهيبها.. لا يأبه بالمقصلة التي ينادي بها خصومه لكي تنزل على رقبته بلا هوادة.. وكان طبيعيا أن تتأثر وسائل الإعلام الفرنسية بهذا اللوبي اليهودي، وتقف في صفه.. وتبث أخبارها بحساب شديد، ليظهر فيها روجيه جارودي بمظهر المجرم في حق اليهود، مثلما أظهرت في وقت متزامن أيضا شخصا آخر هو موريس بايون، في صورة قاتل اليهود..

وكان الانطباع العام الذي تركته وسائل الإعلام الفرنسية لدى المشاهد هو أن فرنسا والعالم يعيش «عصر الكفارات الكبرى» بمعنى أن على فرنسا وأوروبا، والعالم أن تقدم طواعية اعتذارها لكل اليهود الذين كانوا وحدهم - من وجهة النظر هذه - الضحايا، وغيرهم هم الجناة الذين يستحقون أقسى أنواع العقاب.

والأوساط الثقافية المصرية لا تغيب عن بالها صورة الدفاع الهزيلة في فرنسا عن جارودي، بالمقارنة مع «الدفاع» الذي وقف شاهراً سيفه ذودا عن سلمان رشدي الهندي، الإنجليزي الذي أساء

للإسلام أبلغ إساءة، وعن الكاتبة البنغالية تسليما نسرين – صاحبة كتاب «العار»..

والمؤلم هو أن الدفاع عن جارودي كان متهافتا رغم صمود بعض المثقفين الفرنسيين معه، بالمقارنة مع الاحتفاليات التي كانت أقلية لسلمان رشدي، وتسليما نسرين..

وهنا أذكر أن الفيلسوف الفرنسي المعاصر برنار هنري ليفي تولي بنفسه دعوة تسليما نسرين إلى فرنسا، وهي في الأصل كما نعرف جميعا طبيبة لا علاقة لها من قريب بالفكر أو الكتابة – وأشرف هنري ليفي على هذه الاحتفاليات التي أقيمت لها في مؤسسات علمية فرنسية عديدة.. وقام بالترويج لها، ولأفكارها، معتبراً إياها – مع شريحة عريضة من المثقفين الفرنسيين – ضحية جديدة من ضحايا ما أطلقوا عليه اسم «الجبروت الإسلامي».

ويطيب لنا أن نتساءل في هذا المقام ونقول: إذا كانت حرية الرأي والدفاع عنها هي التي تجري على كل لسان في فرنسا.. فأين ذهبت الأصوات المدافعة عنها عندما تعلق الأمر بروجيه جارودي..؟

بكلمة أخرى، لماذا هذه الضعضعة أو بالأحرى هذا الضعف في الموقف من جارودي.. هل لأنه مسلم، أم لأنه يطعن في حقائق صهيونية هي في الأصل لاتزيد على كونها أكاذيب وادعاءات باطلة؟!

وليس من شك أن السؤال السابق هو سؤال استنكاري يحمل في طياته الإجابة بمفهوم المخالفة.. لأن جارودي ذاق الأمرين على أيدي الصهاينة الذين يسيطرون على إعلام العالم..

وجدير بالذكر أن جارودي سبق له أن حوكم أيضاً في عام ١٩٨٦ بعد أن نشر في صحيفة لوموند نداء يطالب فيه بحق الشعب اللبناني في أن يعيش في سلام وحق الفلسطينيين في أن تكون لهم أرض ودولة، ويشكك في نوايا إسرائيل تجاه جيرانها.. وكانت الأوساط اليهودية اعتبرت هذا النداء -مثلما هو الحال الآن- قضية طعن في حق اليهود، والنيل من السامية التي يمثلونها في زعمهم..

والحق أن المرارة التي تملأ فم جارودي هي من نفس «نوع» و «جنس» المرارة التي ملأت فم شيخ المستشرقين الراحل جاك بيرك.. عندما فرضوا عليه حصارا إعلاميا في أعقاب إصداره أهم وأشهر ترجمة لمعاني القرآن الكريم.. وأذكر أنه قال لي في حواراتي معه أن مندوب صحيفة لوموند حدد معه موعدا لإجراء حوار للصحيفة.. ثم عاد فطلب إلغاءه.. وهكذا فعل التليفزيون الفرنسي، بينما اختلف الحال عندما أصدر اليهودي أندريه شواركي ترجمة لمعاني القرآن الكريم عن العبرية.. إذ بادرت الصحف والتليفزيون في فرنسا بلقائه، وأفردت له المساحات المختلفة، وروجت لترجمته في كل الأوساط.. والسبب كما يقول الراحل جاك بيرك هو موقف

اليهود.. الذين يتحكون في الإعلام تحكما بالغاً..

.. ولذلك يحق لنا أن نقول باطمئنان: ما أشبه ليلة جارودي، ببارحة جاك بيرك.. وها نحن نسجل -أخيرا- سعادتنا بلقاء الفيلسوف الفرنسي.

وكان أتيح لي أثناء عملي مراسلاً «للأهرام» في باريس أن أزوره في بيته في ضاحية شامبيني الباريسية وأناقشه في أمور كثيرة أتاحت لي معرفته بشكل جيد.. وهو ما يجعلني أجزم بأن محاكمة جارودي هي محاكمة أبعد وأشمل من شخص جارودي، لأنها محاكمة لحرية الفكر.

جارودي يؤكد: اسمي «روجيه» وليس «رجاء»!

..في تقديري أن الحسنة العظيمة التي تحسب لمعرض القاهرة الدولي للكتاب، ولوزير الثقافة على وجه الخصوص هي أنه ساعد الجمهور المصري في التعرف بشكل صحيح على الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي.. أجزم - أن كل المعلومات المتعلقة بروجيه جارودي وفكره، ومسيرته الطويلة التي قادته إلى حظيرة الإسلام، كانت، مغلوطة بشكل مخجل، وشائعة في أذهان وعلى ألسنة العامة في مصر.. ولم يكن من سبيل إلى تصحيحها سوى هذه المواجهات المباشرة، وذاك الحديث المستطرد الذي كان يكرره ويجدده جارودي نفسه دون ملل أو كلل..

- فالعامة في مصر، وبعض الخاصة -ولم لا- كانوا لا يترددون في الباس روجيه جارودي -عباءة المسلم العادي أو المسلم البسيط. الذي مسته روحانيات الإسلام العظيم، وملكت عليه لبه، -فهرع- دون أن يدري سببا مباشرا لذلك -نحو الإسلام..

- وأذكر أني كنت قد قرأت بعض التغطيات الصحفية في مجلة

منبر الإسلام - قبل سنوات، تسير في نفس الاتجاه، مما أثار حنقي الشديد عليها، لأنني أعلم بحكم صلتي القريبة من روجيه جارودي -أنه أبعد ما يكون عن هذه الصورة التي تسيء له بالقطع أكثر مما تخدمه.. ناهيك عن أنها صورة ضالة ومضللة...

- وأذكر أيضا أن بعض المتعجلين من محترفي إصدار الكتب السريعة عن الأشخاص ركوبا للموجة وهلم جرا، وكان قد أصدر كتابا عن روجيه جارودي، لم يبتعد محتواه العام عن إظهار الرجل في صورة «السلبي» الموغل في سلبيته والذي قصاراه أن فتح قلبه للإسلام وكفى!

وتحضرني هنا، بعض مقولاته التي ألح عليها بنفسه في ندواته القاهرية والتي تصحح -في نظري- هذه الصورة المغلوطة عنه، بشكل مباشر.. ومنها أنه عقب تسلمه لجائزة الملك فيصل قبل سنوات قال في كلمته أمام الحاضرين أنه دخل على الإسلام وهو يحمل تحت إبطه اليمنى «الإنجيل» وتحت إبطه اليسرى كتاب «رأس المال» الشهير لكارل ماركس..

- وأتذكر أيضا إجابته التي كررها أمامي - على الأقل- أكثر من مرة سواء في ندوتي معرض القاهرة الدولي للكتاب، أو في ندوة نقابة الصحفيين والتي يرد فيها على مسألة إسلامه.. ويقول فيها: إنني لم أتنكر لكل مشواري الفكري والنضالي بل أعتز بكل ما قمت به.

وما دخولي الإسلام سوى خطوة، سبقتها خطوات أدت إليها بالضرورة.

- وأضاف يقول أيضا: إن دخولي الإسلام يتسق تماما مع معتقداتي التي صاحبتني منذ عشرات السنين. بل إنني كنت أحلم بها منذ كان عمري ٢٠ عاماً..

- وأشهد أن إجابة جارودي، وبهذه الصورة من المباشرة والوضوح في لقاءاته مع الجمهور المصري، تهمني كثيرا، لأنها ترد بشكل صريح على كل من يحاول –عن عمد أو عن غير عمد– تقزيم عقل الرجل، ومساواة حياته ومشواره الفكري الطويل، بحياة ومشوار أي رجل بسيط، أدركته روحانيات الإسلام فخر وسجد إلى الله شاكرا إياه على نعمة الدين الحنيف.

- والحق: أن جارودي وإن كان بالفعل قد سجد إلى الله شاكرا على دينه العظيم، دين الإسلام، فالصحيح أيضا أن المقدمات التي قادته إلى الإسلام تختلف «في كل شيء» عن المقدمات التي ساقت الآخرين إلى نفس الطريق..

- ويطيب لي أن أقول: إن إسلام جارودي هو إسلام الفيلسوف، وليس إسلام الدعاة.. أو هو إسلام المفكر الذي يجعل عقله هاديه ومرشده في كل الأحوال.. والآن، تعود بي الذاكرة إلى موقفين ذكرهما الرجل بنفسه لي عندما التقيت به ذات يوم في منزله

القريب من باريس.. وهما موقفان يدعمان ما أقول حول اختلاف إسلامه عن إسلام البسطاء.

- الموقف الأول رواه جارودي كالتالي.. وهو المناسبة رجل حكاء، يحب الرواية، وتجري المعلومات والأفكار على لسانه في سرعة عجيبة.. قال: إن مأساة العرب هى أنهم يربطون الدين الإسلامي بهم دائما وأبدا -بمعنى أنهم يعتقدون أن كل ما هو إسلامي هو بالضرورة عربي.. وهذا أمر صعب وخطير في آن واحد.. لأن الإسلام هو الإسلام وكفى، ثم أنه مظلة عالمية من حق الجميع أن يؤمنوا به ويعتنقوه دون أدنى وصاية من أي عربي أو أي مسلم آخر..

- ثم يدخل جارودي روايته بعد هذا التقديم ويقول عندما أشهرت إسلامي في عام ١٩٨٢، لم أطلب من أحد أن يتفضل بالقيام متطوعا؛ بتغيير اسمي فأنا اسمي روجيه جارودي ولا أرى مبررا لأن يتم استبدال اسمي الأصلي باسم آخر شائع الآن على ألسنة المسلمين للأسف وهو «رجاء» جاردوي».

وهنا -والكلام لايزال لجارودي- أجدني أمام أمرين مؤسفين الأول هو أن يتطوع الآخرون بتبديل اسمي دون إخطاري بذلك وكأنهم قد نصبوا من أنفسهم أوصياء عليَّ فهم يرون أن اسمي ينبغي أن يكون «رجاء» بدلا من «روجيه» ومن ثم عليّ أن أطيع شاكرا لهم

هذا الصنيع.

والأمر الثاني المؤسف هو أنهم بربطهم بين «الإسلام والعروبة» طعنوا -ربما دون أن يدروا- في عالمية الدين الإسلامي وشموليته فهو دين للناس جميعا، لكن مُغيري اسمي يرون أنه دين للعرب فقط، وإلا -بالله عليك- لماذا قاموا بتغيير اسمي ليجعلوه اسما عربيا بدلا من الاسم الفرنسي؟!

ويقفز إلى رأسي سؤال هو: ما الضرر إذا عرف الناس أن اسمي روجيه جارودي الفرنسي وأنني قد أشهرت إسلامي، وظل اسمي فرنسيا كما هو؟! بمعنى آخر ما الحكمة في تغيير اسمي وإلباسي «عباءة العربي» بدلا من قبعة الخواجة مادام الأصل أنني مسلم في الحالين؟!

الموقف الثاني الذي رواه لي روجيه جارودي والذي يؤكد أن إسلامه هو إسلام الفيلسوف المفكر وليس إسلام البسطاء من الناس فكان تعليقا له على كلمة أن النبيّ عليه الصلاة والسلام كان «أمياً» يقول فيه: أن كلمة «أمي» المذكورة في القرآن الكريم لها -في رأيه- معنى آخر غير المعنى السهل والسريع المعروف عنها والشائع في معظم التفاسير وهو معنى الجهل.

ويقول جارودي: إنني لا أعتقد أن الرسول الكريم كان أميا أو جاهلا وإنما كانت عكس ذلك تماما لأن تاريخه يؤكد أنه كان رجل

أعمال ناجحا بدليل شهرته التي طغت في الآفاق في عهده وجعلت الكثيرين يطلبون إليه أن يقبل المتاجرة في أموالهم لأنه كان قادرا على تحقيق مكاسب وفيرة بذكائه وعلمه ودرايته بأدبيات السوق والتجارة في مكة والمدينة والقرى المجاورة.

ويضيف جارودي أن هذه الخبرة وذاك العلم تنتفي عند وصفه «الأمية»، ولكنه رجل أعمال من طراز رفيع يتساوى -في عصرنا الحالي- برجل الأعمال الذي يعرف قوانين السوق والمضاربات والبورصة ثم يتقن لغة العصر الحديث مثل الكومبيوتر والانترنت وهذه لعمري -يقول جارودي- صفات إذا ما توافرت في أي إنسان جعلت منه إنساناً مثقفا وعالما متميزاً ويخلص جارودي من هذا الحديث وتلك المقارنة إلى القول -أنني أعتقد- اعتقاداً جازماً - بأن الرسول الكريم لم يكن أمياً بالمعنى الشائع والمألوف.

وهنا أود أن أسجل نقطتين: الأولى هي أن جارودي ليس وحيداً في هذا الاتجاه، لأن هناك تياراً من الفقهاء والمفسرين يرجحون هذا الفهم ويرون أن الرسول الكريم ليس أمياً وإنما كانت خبرته، وذكاؤه، ووعيه بقوانين السوق في عهده أمراً محسوساً ومشهورا عنه..

والثانية هي أن جارودي -بهذا الفهم- يؤكد من جديد أن إسلامه هو من النوع المستنير، وليس من النوع المستكين كما صورته

للأسف بعض التغطيات الصحفية كما أشرت في بداية حديثي.

يبقى أخيرا أن أشير إلى أن جارودي بانحيازه العقلي إلى الإسلام، وتأكيده أنه جاء متسقاً مع معتقداته، وأنه دخله دون أن ينكر ما قرأه في الإنجيل، أو في الماركسية هو شيء يُحسب للإسلام لا عليه كما يظن ضيقو العقول.

روجيه جارودي.. والإعلام.. واللوبي الصهيوني

يبدو أن الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي قد لمس بنفسه دهشة البعض - أثناء الاحتفاليات التي أقيمت له في القاهرة على هامش معرض القاهرة الدولي للكتاب - مما ذكره حول اللوبي اليهودي، وسطوته القصوى على الإعلام الفرنسي والأوروبي بشكل عام بحيث تجعله صاحب: «القول الفصل» في كل ما ينشر أو يذاع.

ولذلك ألح في كل مرة يتحدث فيها عبر لقاءاته مع مثقفي ومفكري مصر، على هذه النقطة التي خبرها وعاناها طويلا من خلال سلسلة المطاردات التي تعرضت لها مؤلفاته ودور النشر التي أصدرتها، ولعل آخرها تحطيم فاترينة المكتبة التي كانت تقدم لجمهورها كتاب جارودي الأخير «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية»، وحرق الكتاب، وضرب صاحب المكتبة.. وكان جارودي محقا عندما ذكر في أحاديثه المسهبة حقيقتين: الأولى أنه لم يُقدم إلى المحاكمة، كما لم تتعرض مؤلفاته للحرق والإبادة لأنه مسلم، ولكن لأنه يكشف حقائق يعتبرها الإسرائيليون «منطقة حرام» ليس من حقه أن يدخلها أو أن يفضح زيفها..

والحقيقة الثانية هي أنه ليس أول من اتهم اللوبي اليهودي بالسيطرة على وسائل الإعلام في فرنسا فقد سبقه أناس آخرون من بينهم الجنرال الراحل ديجول الذي كان صاحب العبارة الشهيرة: التي تقول: أن ٩٥٪ من الإعلام الفرنسي يقع تحت سطوة ونفوذ اللوبي اليهودي.. وإذا كان لي من تعليق على كلام جارودي فلابد أن أذكر أن جارودي على حق، بل والجنرال ديجول على حق أيضاً.. ودليلي على ذلك هو موقف عايشته بنفسي فعندما شاركت في مؤتمر صحفي ضخم نظمته السفارتان الأمريكية والإسرائيلية في باريس في أول لقاء يجمع بين رئيس الوزراء الإسرائيلي حينئذ بنيامين نيتانياهو.. ووزيرة الخارجية الأمريكية وقتها السيدة مادلين أولبرايت بأحد فنادق العاصمة الفرنسية وأشهد أن الحضور كان كثيفا (لا يقل عن ٥٠٠ صحفي من جميع وسائل الإعلام الأوروبية والعالمية.

وعند دخولي قاعة المؤتمر لاحظت أن الصفين الأماميين كانا محجوزين لأعضاء السفارتين الأمريكية والإسرائيلية، فاخترت وزميلي سيد حمدي مكانا في الصف الثالث.. لكن بحكم اقترابنا من المقاعد الأمامية، كنا نلاحظ أن نفراً من الكثرة الحاضرين كانوا يلبسون القلنسوة اليهودية ويتكلمون مع بعضهم اللغة العبرية، وأحيانا يتكلمون باللغة الفرنسية أو الإنجليزية.. فهز الزميل سيد حمدي رأسه قائلاً: يبدو أنهم يمثلون الصحافة الإسرائيلية.. وبعد

انتظار ليس قصيرا، وصلت مادلين أولبرايت تتقدم بنيامين نيتانياهو، وتحدث كلاهما بما كان متفقا عليه خصوصا أن المباحثات بينهما قد طالت وطالت.. وما يهمني في هذا الصدد هو المشهد الذي حدث بعد ذلك، في الفقرة التي يعرفها الصحفيون جيداً في مثل هذه الظروف، وهي إفساح بعض الوقت لطرح الأسئلة.. وجرى المشهد كالتالي: .. وقف أحدهم – عرفنا بعد ذلك أنه يعمل مستشارا بسفارة إسرائيل في باريس ليعطي الكلمة للراغبين في طرح الأسئلة.. فكان أن اختار الأول والثاني والثالث والرابع ثم أعلن انتهاء المؤتمر.. ولم يكن هؤلاء سوى الأشخاص الأربعة الذين كانوا يتحدثون معه بالعبرية قبل بدء المؤتمر الصحفي.. هنا، قد لا يبدو الأمر غريبا إذا كان المتحدثون يملكون بالفعل الصحافة الإسرائيلية، لكن الحقيقة أنهم لم يكونوا كذلك، فالمتحدث الأول أعلن عن نفسه أنه ممثل إحدى القنوات التليفزيونية الفرنسية، والثاني قدم نفسه مندوبا لصحيفة أمريكية، والثالث لصحيفة إنجليزية، والرابع لوكالة أنباء افريقية... ونظر نحوي الزميل سيد حمدي وقال في دهشة: إنهم إسرائيليون نعم، لكنهم يتحدثون باسم صحافة العالم وليس صحافة إسرائيل!

فقلت: إنها صحافة إسرائيل يا زميلي وإن اختلفت اللغات، التي تتحدث بها والبلاد التي تصدر منها، بعبارة أخرى وحتى نعود إلى حديثنا الذي بدأنا به هذا المقال، إنها الصحافة التي تحدث عنها

الجنرال ديجول، والفيلسوف روجيه جارودي مؤكدا أن ٩٥٪ منها تقع تحت سطوة اللوبي اليهودي..

.. يبقى أن أشير إلى نقطة أخرى تتعلق بتأثير اللوبي اليهودي في وسائل الإعلام وأقول أن ما ذكره ديجول ثم جارودي ليس جديدا، ولا غريبا، فكلنا يعرفه، لكننا للأسف مازلنا نتعامل مع وسائل الإعلام الغربية ويتم في براعة شديدة وكأنها محايدة، وموضوعية.. أو وكأن شيئا لم يحدث.. غريبة!!

الإسلام «شيء» و«العروبة» شيء آخر

روجيه جارودي الفيلسوف الفرنسي المسلم شخصية خلافية حتى بين أصدقائه وتلاميذه ومريديه.. فهو يقترب من التسعين من عمره، ولاتزال حماسته للقضايا والأفكار التي يؤمن بها، لا تقل بحال من الأحوال عن حماسة الشباب في مقتبل العمر.. ثم إنه لا ينكر أن محطات الفكر في حياته تواصلت من الإلحاد إلى الإيمان المسيحي الكاثوليكي، إلى أن اهتدى للإسلام فدخل حظيرته، إنما تدينه يختلف كثيراً عن تدين الناس العاديين، إلى حد أن البعض وصفه بأنه «صادم» لأولئك الذين اعتادوا الفهم الهادئ للقضايا بينما ينظر هو إلى منتقديه باستخفاف ويسفه قولهم بأن الإسلام في حياته مجرد محطة لكنه يسخر قائلاً: لقد اهتديت إلى الإسلام واخترته بإرادتي، فهو لا يتعارض مع عقلي، بل بالعكس، يدعوني إلى إعماله في كل كبيرة وصغيرة، وسأبقى مسلماً حتى ألفظ أنفاسي..

ويكره جارودي، الذي يعرف العربية ربط الإسلام بالعرب فقط وله جملة من القناعات بشأن الغرب والإسلام، والأصولية، وأمريكا التي يسميها «الشر الأكبر» وقد تناولها معنا بإسهاب في هذا

الحديث:

«حدثني أحد تلاميذك عن أنك لم تكن موافقاً على إطلاق اسم رجاء جارودي بدلاً من روجيه جارودي عند إشهار إسلامك.. فهل هذا صحيح وما سبب ذلك؟

- أرجو أن تعتقد أنني أحتفل سنوياً بذكرى اليوم الذي أشهرت فيه إسلامي. ولعلك تعرف أنني دخلت إلى الإسلام في الثاني من شهر يوليو عا ١٩٨٢ وكان عمري وقتذاك ٧٢ عاماً.. وربما لهذا السبب لم أستطع تعلم اللغة العربية -لغة القرآن -لأن شيخوختي كانت تحول دون بذلي جهدا مضاعفاً لتعلم هذه اللغة فضلاً عن أنني كنت مشغولاً في ذلك الوقت بإتقان اللغة الأسبانية، التي كنت مشغولاً في ذلك الوقت بإتقان اللغة الأسبانية. التي كنت مضطرا للتعامل بها مع الكثيرين عندما أسست المتحف الإسلامي في أسبانيا.

- وقد أدهشتني وآلمني أيضاً أن أحداً لم يستشرني عندما كتبوا لي شهادة اعتناق الدين الإسلامي، بشأن اسمي وأكاد أقول أنني فوجئت بهم يغيرون اسمي من روجيه إلى رجاء، وهو تغيير -من وجهة نظري- غير مبرر مما جعلني أتساءل مراراً وتكراراً لماذا يصر هؤلاء على جعلي مسلماً عربياً، لأن تغيير روجيه «الفرنسي» إلى رجاء العربي لا يعني سوى معنى واحد هو إخراجي من «فرنسيتي»

وادخالي إلى العربية وتساؤلي أيضا هو:

ماذا يضير هؤلاء إذا ما كنت مسلماً فرنسياً أو هندياً أو صينياً؟

واستطرد روجيه جارودي قائلاً دون أن تفارقه دهشته:

ليس لهذا التصرف سوى معنى واحداً هو أن بعض إخواننا العرب يرون أنهم أوصياء على الإسلام، وأن هذا الدين هو دينهم وحدهم، وتلك نزعة عصبية آن لها أن تزول، فالإسلام هو دين الإنسانية جمعاء، وكما أن من حق أي إنسان دخوله دون استبدال بذلته بالجلباب والعمامة العربية، فكذلك من حقه الاحتفاظ باسمه لأن الإسلام أولاً وقبل كل شيء دين الجوهر لا المظهر.

ناهيك عن أن احتفاظي باسمي الفرنسي روجيه مؤشر أكيد على أن الدين الإسلامي هو دين عالمي أو بالأحرى دين للإنسانية جمعاء، يدخله الفرنسي والإنجليزي،والهندي، والعربي، والزنجي.. ولست سوى واحد من ملايين المسلمين الذين يفرقهم اللون، والجنس، وتجمعه راية الإسلام، وشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

لماذا اعتنقت الإسلام؟

قلت: رحلتك الطويلة مع الفكر، ولأنك كنت ربما في مرحلة أولى من حياتك «لا أدريا» - أي لا ينتمي لأي دين - ثم ممارستك للكاثوليكية «دينيا» واعتنقت الشيوعية كمذهب، بل كنت أحد منظري الفكر الشيوعي ومؤلفاتك شاهد على ذلك.. كل هذا يجعل

البعض يتساءل: لماذا لا يكون اعتناقك للدين الإسلامي سوى محطة مثل سائر المحطات في مشوارك الفكري؟

- أجاب بعد أن بدا متبرما من السؤال:

سبب اعتناقي الإسلام مباشر وواضح ومقنع على الأقل بالنسبة لي لأن الإسلام دين تسامح يعترف ويقدر كل الأديان ويتجه بتعاليمه إلى كل البشر.

بعض المهتمين بفكرك يرون أن تدينك ليس كالرجل بمعنى أن فهمك للدين الإسلامي هو فهم فوق مستوى الكثيرين – ما رأيك في ذلك؟

- لقد قرأت كل ما كتب عن الدين الإسلامي باللغات الفرنسية والإنجليزية والأسبانية وعلى أية حال اخترت الإسلام بإرادتي، ولم يجبرني أحد على ذلك. ولا تنس أنني اعتنقت الإسلام بعد أن بلغت من العمر عتياً كان عمري كما أسلفت ٧٢ عاماً. لكنني استعمل عقلي دائماً في كل شيء يخص هذا الدين الحنيف، ولا أكاد أسلم بما يسلم به الآخرون من الفقهاء الكلاسيكيين -المحافظين- فعلى سبيل المثال، لي فهم خاص لمعنى كلمة النبي الأمي يبتعد كثيراً عن معنى أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف القراءة والكتابة.. فهذا هو المعنى الدارج والشائع والذي يسلم به الكثيرون، ورؤيتي الخاصة أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم لم

يكن أمياً بهذا المعنى لأنه -كما يعرف كل المسلمين- كان تاجراً ذكياً وناجحًا. ومشهوراً بأمانته، وإتقانه لعمله كما كان ماهراً وبارعاً في التجارة التي يحقق من ورائها الأرباح الطائلة..

وإذا عقدنا مقارنة بين التاجر الناجح في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومثيله في زماننا، لوجدنا أن هذا الأخير؛ لكي يحقق نجاحاً باهراً في عمله، ويعقد الصفقات بمهارة، ويجني الأرباح الكبيرة، لا يمكن أن يفعل كل ذلك دون أن يتقن فنون الكمبيوتر، والإنترنت، ويتحدث عدة لغات، ويتابع أخبار الاقتصاد والبورصة في كل مكان أي أنه لا يمكن أن يكون جاهلاً بقواعد القراءة والكتابة..

صمت جارودي لحظة ثم أضاف قائلاً:

ما أريد قوله، لأنني مؤمن به هو أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان تاجراً مثقفاً، يجيد لغة التجارة في عصره إجادة تامة، وإلا لما تمكن من تحقيق هذه الشهرة الذائعة في عهده..

نقطة أخرى تجعلني في فهمي للدين الإسلامي مختلفاً عن الآخرين من الكلاسيكيين، وتتعلق بالشريعة والفقه، فرؤيتي أنه لا ينبغي الخلط بينهما، فالشريعة أو الطريقة «الشرعة» تدل على توجه أخلاقي شامل وليس على عدد معين من الوصايا الفقهية المرتبطة بأوضاع تاريخية تتبدل مثلما لا ينقطع الله عن الخلق.

بمعنى آخر: إن فعل «شرع» هو جذر مصطلحي شريعة أو شرعة في كل صيغهما وألوانهما ويختلف تماماً عن وصايا وتعاليم فقهية تعهد تأويلاً بشرياً.

انطلاقا من هذه المبادئ في كل عصر وعند كل شعب لتنظيم الحياة في المجتمع ولتكوين ما يسميه الفقهاء المسلمون بالفقه.

ناهيك عن أن كلمة فقه وفقهاء غير واردتين في القرآن، ثم إن التوجه الخلقي والديني «الطريق إلى الله» الشريعة الحق، هو الهدف الأساسي للقرآن، ضمن أصل ما يزيد عن ٦٠٠٠ آية قرآنية هناك ٨٠ آية فقط حول الأحكام الحقوقية.

بعبارة واضحة أخرى إن القرآن دعوة دينية وأخلاقية وليس قانونا فقهياً.. ولئن كان كتاباً حقوقياً فلأنه يشرع لمجمل الحياة الاجتماعية بدءا من البنية التكوينية للجماعة وصولاً إلى تنظيمها الاقتصادي بمعنى أنه يقدم الأسس الأخلاقية لوضع تشريع، في كل عصر، يلبي حاجات المجتمع لكنه لا يقترح قانوناً بعينه.

ولهذا السبب تجدنى في فكري الإسلامي -ألح على ضرورة الفصل بين الشريعة والفقه من جانب، وعلى العودة إلى المنابع الأصلية، لأنني مقتنع أن هذه ليست رجوعاً إلى الماضي كما قد يظن البعض لأن النهر إذ يجري نحو البحر يكون مخلصاً لمنبعه.

«هل هذه الأفكار هي التي قادتك في النهاية إلى الدعوة إلى فقه

حر، أو فقه تحرير على حد قولك في كتاب الأصوليات المعاصرة؟

- أجاب: في كتابي الذي ذكرته قلت إن الإسلام يستطيع في الوقت الحاضر، بإيمان الملايين من البشر الذين يعيشونه، والذين أثبتوا جدارتهم بأن يعيشوا هذا الإيمان حتى الشهادة. أن يؤدي دوراً مهماً إلى جانب العقائد الأخرى التي أنجزت تجددها ولا تنوي الانحراف عنه.

باختصار إذا كانت لاهوتيو التحرير في أمريكا اللاتينية وأفريقيا، قد حققوا انقلاباً جذرياً في اللاهوت التقليدي، وفي واجهة كل الأصوليات، فالإسلام في حاجة إلى هذا الفقه، فقه التحرير.

الغرب .. لماذا يكره الإسلام؟

أود أن أستمع منك إلى إجابة واضحة ومحددة ومقنعة حول الأسباب التي تجعل الغرب يحرص على تشويه صورة الإسلام؟.

– التاريخ القديم والمعاصر منذ الحروب الصليبية وخروج المسلمين من أسبانيا وحتى حرب الجزائر يؤكد أن الغرب يعتبر الإسلام شيطاناً يستحق اللعنة في كل وقت، وهذه حقيقة يجب ألا تغيب لحظة واحدة عن عقولنا لكن المؤسف أن بعض المتحدثين باسم الإسلام يقدمون لأعدائنا جميع الوسائل لتشويه صورة هذا الدين «فعلى سبيل المثال، عندما يصر هؤلاء على أن الشريعة ليست إلا قطع يد السارق، وجلد أو رجم الزاني ووضعية المرأة المتدنية بالنسبة للرجل، يضرون بالإسلام أبلغ الضرر ولقد ذكرت في كتابي الأصولية المتطرفة أن الأصوليين يقدمون عن الإسلام الصورة التي يريد ألد أعدائه أن يعطوه إياها، وضربت لذلك مثلا هو أن جعفر نميري رئيس السودان السابق عندما احتفل سنة ١٩٨٣ بذكرى تطبيقه الدموي للشريعة توافد رجال الدين على الخرطوم لتمجيده مشيدين بتطبيقه الصحيح للشريعة، لكن أحداً منهم لم ينطق بكلمة واحدة عندما سقط نميري وعلقت السلطات

السودانية تطبيق الشريعة.

- ثم لا يخفي عليك أن الغرب لا يريدون إلا هذه الصورة البشعة للإسلام وهي صورة الدين الصارم العنيف والدليل على ذلك هو أن الولايات المتحدة ودولا غربية من ورائها لا تساند اليوم، إلا الدول الأكثر جمودا في فكرها الديني فقد ساندت أمريكا الأفغان في حربهم ضد السوفيت وما أن غاب شبح الخطر الأحمر عن المنطقة عادت تساند العناصر الأكثر تطرفا لكي تتولى السلطة في أفغانستان وهو ما حدث بالفعل.. كما أن موقفها من إيران والعراق ليس ببعيد، فساعدت على تسليح العراق لكي يكون قوة ضاربة في وجه التطرف الإسلامي بإيران، عندما تحقق لها ذلك من خلال حرب ضروس امتدت لسنوات بين البلدين انقلبت على العراق ذاته.

ثم استطرد جارودي قائلاً:

إن مؤثرات الغرب على العالم الإسلامي لم تتوقف في يوم من الأيام، إذ يكفي أن تعرف أن فكرة القومية سواء القومية العربية أو القومية التركية كانت من بنات أفكار الغرب نفسه. فميشيل عفلق «المتفرنس» هو مخترع مذهب أو فكرة القومية العربية، التي «دوخت» العرب والمسلمين في رأيي أكثر من نصف قرن.

كما أن فكرة القومية التركية أو الجنس التركي السامي من اختراع ثلاثة يهود أحدهم إنجليزي والثاني فرنسي والثالث نمساوي.

وفي هذا الصدد أذكر أن شاباً تركياً سألني في زيارتي الأخيرة لاسطنبول وقال: ألا تعتقد أن الأتراك هم الأجدر بقيادة العالم الإسلامي؟.

فأجبت: إن مثل هذا السؤال لا موجب لطرحه، لأن العالم الإسلامي قائده الوحيد هو الله.

ولاشك أن مجرد طرح سؤال كهذا فهو أكبر مؤشر على نجاح الغرب في زعزعة الصف الإسلامي، واعتزاز كل مسلم بجنسه فنشأت خلافات لا مبرر لها غير الفتن بين الأتراك والفرس والعرب.

* انطلاقا من كراهيتك الشديدة للولايات المتحدة التي تعتبرها طليعة الانهيار «يحضرني سؤال هو: ماذا يعني أن يكون الشيخ الضرير عمر عبد الرحمن أحد رموز الأصولية المتطرفة في مصر موجودا حاليا في أمريكا التي وصلها بتأشيرة دخول من السودان؟.

صمت روجيه جارودي لحظة ثم قال: أعتقد أن الأصولية المتطرفة تلعب- ربما عن غير إرادة منها -لعبة خطيرة فهي ترفض النموذج الغربي ولكنها عاجزة عن إعطاء نهج بديل وهنا يحلو للولايات المتحدة والغرب مزاولة لعبتها المزدوجة، فهي تلعن الأصولية المتطرفة وتتهمها بالهمجية والبربرية، خصوصا عندما تتحدث عن تطبيق الشريعة الإسلامية وقطع يد السارق...و ...الخ وفي الوقت نفسه لا تتردد في تقديم كافة المساعدات لرموزها. وإذا سألتني عما تريده الولايات

المتحدة تحديداً من وراء هذا الموقف التناقضي فإجابتي هي أنها لا تريد سوى السيطرة على العالم وضمان استمرارية سوق رحبة لكل منتجاتها ولن يساعدها في تحقيق ذلك - إلى جانب وسائلها العسكرية طبعا سوى هؤلاء المنغلقين على ذواتهم.

سألته: البعض يطلق على ما يحدث الآن (من مظاهر تدين تأخذ أشكالا متباينة في العنف اسم صحوة إسلامية.. ما رأيك؟.

- أجاب: أرجو أن تصدقني، فالعالم الإسلامي يعيش اليوم أسوأ مراحل انحطاطه.. فمعظم قادته مرتبطون بالغرب وعقليتهم مشوشة وهم على كل حال لا يمثلون الإسلام، وإذا كتبت عن الإسلام (العقيدة والإيمان) فلن تعثر عليه إلا في قلوب الناس العاديين. أما الإسلام كمنهج حياة فهو غير موجود والسبب كما أسلفت هو التخبط الذي يعيش فيه الأصوليين المتطرفون.

مهمة صعبة في مصر

زيارتك الأولى لمصر في عام ١٩٦٧، كانت بتكليف من رئيس المجلس اليهودي العالمي «ناحوم جولدمان» ما هي ظروف هذه الزيارة وفحوى هذا التكليف؟

ناحوم جولدمان، كان رجلا كارها للصهيونية وكان قد طلب من الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت القيام بكسر اللوبي الصهيوني.. على أية حال، ذهبت إلى القاهرة لأعرض اقتراحاً خاصاً بعقد لقاء مع

الرئيس عبد الناصر وجولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل على أن يتم ذلك من خلال شخص وسيط وكان من المتوقع أن يحضر جولدمان بنفسه أو من ينوب عنه.

ومازلت أذكر أن جواز سفري الذي كنت أحمله وقتذاك كان غريبا، حيث اشتمل على تأشيرتي دخول، الأولى لإسرائيل، والثانية لمصر، والتقيت في إسرائيل بعدد من الوزراء من بينهم أبا إيبان، وكان الجميع موافقين على فكرة اللقاء الذي كانت من المقرر عقده في يوجوسلافيا السابقة.

لكن نقل لي أحد الوزراء الإسرائيليين في اليوم التالي، إن جولدامائير رفضت الفكرة، وقالت أن جولدمان لا يمثلنا، وإذا كان الرئيس عبد الناصر يريد دعوة أحد، فليدعني أنا، ولذلك مات المشروع، وتوقفنا عن المضي فيه.

وزرت مصر مرة ثانية في عام ١٩٧٤ عقب تأسيس معهد حوار الثقافات في سويسرا، عندما قررنا عمل مجموعة أفلام تتضمن ملخصا عن إسهام كل حضارة واخترنا مصر، وكان يشاركني الفكرة المخرج الراحل شادي عبد السلام، الذي كان سيقدم لنا فيها حول اخناتون ونفرتيتي (وللأسف توقف المشروع بسبب خلافاتنا مع التليفزيون الفرنسي).

كما زرت مصر مرة ثالثة بمناسبة صدور كتابي حول فلسطين ثم

توالت زياراتي تباعا للمشاركة في المؤتمرات والندوات ومعرض الكتاب، وتربطني علاقات طيبة بالكثيرين من المثقفين والأزهريين.

* وأخيرا هل هدأت العواصف الآن بعد أن قال القضاء الفرنسي كلمته بشأن الدعوى التي رفعتها ضدك الدوائر الصهيونية بسبب كتابك الأخير «الأساطير الإسرائيلية»؟

صراعي مع الدوائر الصهيونية لن ينتهي، فليست هذه المرة الأولى، التي يصل فيها الوضع للقضاء، فقبل أكثر من ١٥ عاماً حدث شيء مشابه لذلك.. ولعل أكثر ما يضايق هذه الدوائر أنني ألح على كتابة التاريخ الصحيح لا المزيف.. ولعلك تذكر أنني شككت في الأكذوبة الكبرى، التي روجت لها إسرائيل في نهاية القرن العشرين، وهي أن النازيين أحرقوا منهم ستة ملايين، وأكدت عبر الوثائق والشهادات الفكرية أن هذه الملايين لم تكن سوى بضعة آلاف، ولم يكن اليهود الوحيدين الذين ترصدهم النازي.

-أيا كان الوضع لست أخاف من هذه الضجة أو الزوابع التي تثيرها إسرائيل والصهيونية والأمريكان ضدي سيما وأنني أسعى إلى تعبئة الجميع حاليا بالتوعية والفهم الصحيح ضد الاستعمار الأمريكي الجديد للعالم الذي يلبس ثوبة العولمة.

«روجيه جارودي» يتزوج مرتين

ربطتنى لبعض الوقت، ربما بحكم سنوات الغربة الطويلة في باريس،

علاقة طيبة بالمفكر الفرنسي المعروف روجيه جارودي الـذي اسـتقرت نفسه، حتى هذه اللحظة، باعتناقه للدين الإسلامي بعـد أن ظـل يطـوف حول المسيحية في صورتها البروتستانتية ثـم انتقـل منهـا إلى الماركسـية، واشتراكية التسيير الـذاتي، إلى أن دخـل حظيـرة الإسـلام، ورفـض تغيير اسمه من جارودي إلى رجاء الدين، لأن الدين الإسلامي أكبر مـن أن يـتم إدخاله في قمقم العروبة، اتصل بي ذات مرة روجيـه جـارودي يطلـب أن يلتقي سفير قطر في باريس وكان اسمه «العطية»، الذي تولى لاحقـا رئاسـة مجلـس التعـاون الخليجـي، ولسـابق معرفتـي بالرجـل، وهـو سياسـي محنك، حصلنا على موعد في اليـوم التـالي، وذهبـت برفقـة جـارودي إلى السفارة القطرية وفوجئت بأن جارودي بعد أن تحدث عن المركز الثقـافي الذي يحمل اسمه في إسبانيا وإمكانيـة دعـم السـفارة للنشـرة التـي كـان يصدرها في حينه تحت عنوان «شرق وغرب»، طلب من السفير «العطيـة» طلبا غريبا وهو أن يسمح لزوجته الفلسـطينية أن تلقـاه في الدوحـة وهـذا معناه أن يقـوم السـفير بـأمرين: أن يعطيـه تأشـيرة دخـول إلى قطـر.. ويعطي زوجته المقيمة في دمشق تأشيرة دخول ثانيـة، بحيـث يكـون اللقاء في أحد فنادق الدوحة!

واعترف بأنها المرة الأولى التي كنت أعرف فيها أن السيد جارودي له زوجة ثانية «فلسطينية مسلمة»، وأذكر جيداً أن السفير العطيـة قـد احتفـى بطلبيه وأكد له أن كل ما يريده سيكون موضع التقـدير والاهتمـام. بـل أن الفندق سيكون مستعداً لاستقبال جارودي وزوجته.. ويعد ايام كان لا بد

أن أذهب للقاء جارودي في منزله. وعندما دققت الباب، وجدتني أمام سيدة في الأربعين أو يزيد قليلاً، كانت متوسطة الطول تلبس ملابس أنيقة في غير فخفخة، ورحبت بي في غير مبالغة.. واضطررت أن انتظر عدة دقائق «وقوفا» ريثما يهبط للقائي السيد روجيه.. وعلى عادة الفرنسيات العجائز نسبيا يدخلن في حديث مع ضيوفهن لا ينتهي.. باختصار فهمت من الحديث أنها زوجة السيد جارودي، هكذا قالت، وأنها تعمل ناظرة مدرسة في ضاحية «شيل»، وهي الضاحية التي كنت -بالمصادفة- أسكن فيها.. وأذكر أنها كانت تتلفت في غير اطمئنان أثناء حديثها معي.. وعندما لقيني روجيه جارودي أسفل السلم الذي هبط عليه، لم يرحب بها على الإطلاق وبات وكأنه يتجاهلها عن عمد لكن في مكتبته المكتظة بالكتب، من كل لون وحجم، أخبرني أن هذه السيدة ليست زوجته، جاء ذلك بشكل عارض وهو يحدثنى عن كتابه «الأصوليات» الذى أخبرنى أن الناشرين فى لبنان سرقوه ونشروه مثنى وثلاث ورباع، دون أن يحصلوا على موافقته!

تركت جارودى وهاجس يسنح فى نفسى:

هذا الرجل لم ارته له فعلامات الاستفهام التى يرسمها حول نفسه أكثر من الإجابات، خصوصاً عندما تحدث معى عن أن كلمة «إمى» التى يوصف بها صاحب الرسالة المحمدية لا علاقة لها بما نعرفه عنها من صفات!!

■ عبد الرحمن بدوي



أستاذ الفلسفة

(٤ فبراير ١٩١٧ـ ٢٥ يوليو ٢٠٠٢ القاهرة)

أحد أبرز أساتذة الفلسفة العرب في القرن العشرين وأغزرهم إنتاجا، إذ شملت أعماله أكثر من ١٥٠ كتابا تتوزع ما بين تحقيق وترجمة وتأليف، ويعتبره بعض المهتمين بالفلسفة من العرب أول فيلسوف وجودي مصري، وذلك لشده تأثره ببعض الوجوديين الأوروبيين وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني مارتن هايدجر.

نشأته ودراسته

والدهُ بدوى بدوى محمود، عمدة القرية، (شرباص - دمياط - مصر) تعرض لمحاولة اغتيال قبل ولادة عبد الرحمن بأربع سنين، وهو من أثرياء منطقته، وكان تسلسل عبد الرحمن بدوى الخامس عشر من بين ٢١ شقيقا وشقيقة. وأنهى شهادته الابتدائية فى ١٩٢٩ من مدرسة فارسكور ثم شهادته فى الكفاءة عام ١٩٣٢ من المدرسة السعيدية فى الجيزة .وفى عام ١٩٣٤ أنهى دراسة البكالوريا، حيث حصل على الترتيب الثانى على مستوى مصر، من مدرسة السعيدية، وهي مدرسة اشتهرت بأنها لأبناء الأثرياء والوجهاء. التحق بعدها بجامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم الفلسفة، سنة ١٩٣٤، وتم ابتعاثه سنة ١٩٣٧ لمدة أربعة أشهر إلى ألمانيا وإيطاليا أثناء دراسته لإتقان اللغتين الألمانية والإيطالية وذلك بناءً على تعليمات من الدكتور طه حسين، وعاد عام١٩٣٧ إلى القاهرة، ليحصل فى مايو ١٩٣٨ على درجة الليسانس من قسم الفلسفة. وتم تعينه في الجامعة كمعيد لينهي بعد ذلك دراسة الماجستير ثم الدكتوراه عام ١٩٤٤

من جامعة القاهرة، والتى كانت تسمى جامعة الملك فؤاد في ذلك الوقت. عنوان رسالة الدكتوراه الخاصة به كان: «الزمان الوجودي» التى علق عليها طه حسين أثناء مناقشته لها في ٢٩ مايو ١٩٤٤ قائلا: «لأول مرة نشاهد فيلسوفاً مصرياً». وناقش بها بدوى مشكلة الموت في الفلسفة الوجودية والزمان الوجودى. وكان يجيد اللغات: الفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية واليونانية واللاتينية و الإنجليزية و الفارسية بالإضافة إلى اللغة العربية.

عمله الجامعي

عين بعد حصوله على الدكتوراه مدرسا بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة فؤاد في أبريل ١٩٤٥ ثم صار أستاذا مساعدا في نفس القسم والكلية في يوليو سنة ١٩٤٩. ترك جامعة القاهرة فؤاد في ١٩ سبتمبر ١٩٥٠، ليقوم بإنشاء قسم الفلسفة في كلية الآداب في جامعة عين شمس، جامعة إبراهيم باشا سابقا، وفي يناير ١٩٥٩ أصبح أستاذ كرسي .وعمل مستشارا ثقافيا ومدير للبعثة التعليمية في بيرن في سويسرا مارس ١٩٥٦- نوفمبر ١٩٥٨.

غادر إلى فرنسا ١٩٦٧ بعد أن حددت ثورة ٢٣ يوليو أملاك عائلته. وكان قد عمل كأستاذ زائر في العديد من الجامعات، (١٩٤٧- ١٩٤٩) في الجامعات اللبنانية، (فبراير ١٩٦٧- مايو١٩٦٧) في معهد الدراسات الإسلامية في كلية الآداب، السوربون، بجامعة باريس، (١٩٦٧- ١٩٧٣) في الجامعة الليبية في

بنغازي، ليبيا، (١٩٧٣- ١٩٧٤) فى كلية «الإلهيات والعلوم الإسلامية» بجامعة طهران، طهران و(سبتمبر سنة١٩٧٤- ١٩٨٢) أستاذا للفلسفة المعاصرة والمنطق والأخلاق والتصوف في كلية الآداب، جامعة الكويت، ثم استقر في نهاية الأمر في باريس.

نشاطه السياسي ومشاركته في كتابة الدستور المصري

كان عضوا في حزب مصر الفتاة (١٩٣٨- ١٩٤٠) ثم عضوا في اللجنة العليا للحزب الوطنى الجديد (١٩٤٤- ١٩٥٢)، وتم اختياره مع ٥٠ شخصية، كعضو في لجنة الدستور التى كلفت في يناير ١٩٥٣ لكتابة دستور جديد، والذي تم الانتهاء منه في أغسطس ١٩٥٤ لكن الدستور أهمل واستبدل بدستور سنة ١٩٥٦.

مذكراته

في عام ٢٠٠٠ نشر مذكراته في كتاب ضخم من جزئين، وصل عدد صفحاته إلى ٧٦٨ صفحة، لدى المؤسسة العربية للدراسات والنشر. وكان لنشر الكتاب صدى ضخم لدى الكثير من المثقفين المصريين وذلك لأن بدوي هاجم الكثير ممن اعتبرهم المثقفين العرب رموزا للفكر. كما هاجم بقوة النظام المصري وحكم جمال عبد الناصر موجها انتقادات شتى. وعلق على حجم المشاركة في تشييع جنازة جمال عبد الناصر بأن هذا «أمر عادي ولا يمت بصلة إلى وجود علاقة حب بين المصريين وعبد الناصر»، مشيرا إلى أن «هذه هي طبيعة شعب هوايته

المشى في الجنازات». كما اتهم رموزا سياسية منها سعد زغلول بالعمالة للبريطانيين، وطه حسين بالعمالة للأجهزة الأمنية، واعتبر الطلاب جواسيس على بعضهم البعض، مشيرا إلى أن قيام عبد الناصر بتأميم قناة السويس كان سعيا وراء الشهرة.

أعماله

له ما يقرب من ٢٠٠ كتاب حسب محمود أمين العالم بينما قال أحد ناشريه إن كتبه التى نشرها تجاوزت ١٥٠ كتابا منذ كتابه الأول عن نيتشه الذي صدر عام ١٩٣٩ وهو الأمر الذي يؤكده ابن أخيه محسن بدوي حيث يقول في موقعه الإلكتروني: بلغت أعمال الدكتور عبد الرحمن بدوى سواء المنشورة أو غير المنشورة نحو ١٥٠ كتاباً منها أعمال منشورة بالفرنسية والإسبانية والألمانية والإنجليزية فضلا عن العربية.

وفاته

توفي في مستشفى معهد ناصر في القاهرة صباح الخميس ٢٥ يوليو ٢٠٠٢ عن عمر يقارب ٨٥ سنة. حيث كان قد عاد من فرنسا إلى مصر قبل وفاته بأربعة أشهر بسبب إصابته بوعكة صحية حادة إذ سقط مغشيًا عليه في أحد شوارع باريس واتصل طبيب فرنسى بالقنصلية المصرية بأن أمامه شخصًا مريضا يقول إنه فيلسوف مصري يطلب مساعدتهم.

بدوي: عاش في فرنسا.. ومات في مصر!

في كتابه «الموت والعبقرية» يقول د. عبد الرحمن بدوي (أستاذ أساتذة الفلسفة في الجامعات العربية وصاحب أضخم مجموعة مؤلفات فلسفية وإسلامية): أنه لا يفهم كيف يدافع إنسان عن أفكاره دون أن يتعصب لها.

وأقول قد لا تكفي هذه الحجة النظرية مُبررا لما ساقه د. بدوي معي في هذا الحوار حول عدد من القضايا الثقافية الساخنة فكيف.. يكون الخير -كل الخير- فيا يراه د. بدوي، والشر - كل الشر- فيما يذهب إليه الآخرون. ما رأي د. عبد الرحمن بدوي فيما تنشره الصحف المصرية، وما يلفظ به المثقفون في مصر والعالم العربي اليوم؟ وما هي آخر مؤلفاته، وكيف ينظر إلى طه حسين وعباس العقاد بعد مرور مائة سنة على ميلادهما؟ وأخيراً ما هو تفسيره لكتاباته الإسلامية التي ستُخرجها للنور عجلات المطابع في الأسابيع القليلة القادمة..

الإجابة المُستفيضة تتضمنها ثنايا هذا الحوار.. على مقهى

«لوديبار» المجاور لنهر السين بالحي اللاتيني جمعتني الصدفة ثانية بأستاذنا عبد الرحمن بدوي الذي بدا مشغولا بقراءة مقال عن «سلمان رشدي» بصحيفة «لوموند».. اقتربت منه دون أن أخفى سعادتي بلقائه فأشاح بالصحيفة عن وجهه وسألني في شيء من الحذر كعادته وقال:

- ماذا تريد؟

- قلت مبتسما: هل تسمح لي بالجلوس؟

فهز رأسه موافقا بعد تردد وقال في حماس مشوب بالسخط: ما هذا الذي يكتبه أحمد عبد المعطي حجازي عن العلمانية، وكيف يسمح الأهرام بنشر مثل هذه الادعاءات الباطلة.. فالصغير يعرف قبل الكبير أن الإسلام لا يتفق مع الفكر العلماني، فالدولة في الإسلام دين، والدين دولة، ورئيس الدولة يجب أن يجمع بين الجانبين.. فكيف يزعم عبد المعطي حجازي بأن الإسلام لا يرفض العلمانية؟!

• قلت مُقاطعا: لعله يقدم اجتهادا فكريا في هذا المجال. التفت د. بدوي نحوي مندهشا وقال في لهجة عنيفة: القضية ليست قضية اجتهاد فكري، وإنما هي محاولة من جانبه وكذلك من جانب د. حسن حنفي (الذي كتب شيئا قريبا من هذا في الأهرام قبل أسبوعين) لتبرير فرض العلمانية على الدولة في الإسلام ولإثبات أنهما ليسوا مخالفين لهذا الدين. بعبارة أخرى يحاول الرجلان

إيجاد نوع من «حق المواطنة» للعلمانية في الفكر الإسلامي.

ثم استطرد د.بدوي يقول: الحق أنني لم أعد أفهم ما يدور في الأوساط الثقافية والجامعية في مصر فلقد تملكتني الحيرة والدهشة عندما قرأت قبل أيام أن د. عزت قرني أستاذ الفلسفة بجامعة عين شمس يقول في ندوة علمية أننا في مصر لسنا في حاجة لدراسة تاريخ الفلسفة الحديثة في أوروبا وحسبنا أن نكرس كل جهودنا لدراسة وفهم الفكر المستنير عند الإمام محمد عبده!

ثم تحدث د. بدوي في صمت طويل بعد أن علّق على ذلك بمرارة وقال: هل يمكن أن نسمع مثل هذا الكلام من أناس يعتبرون أنفسهم أوصياء على الفكر والثقافة في مصر اليوم؟!

نظرت في وجه الرجل وكان عابسا غاضبا وقلت:

● تُرى ما هي المؤلفات التي فرغت منها مؤخراً؟ فأجاب يقول بعد أن انفرجت أساريره قليلاً:

- لقد انتهيت من كتابة ثلاثة مؤلفات: الأول بعنوان «دفاع عن القرآن ضد مُنتقديه» والثاني بعنوان دفاع عن حياة النبيّ ضد الطاعنين فيها« والثالث بعنوان »الإسلام في نظر: فولتير، وإدوارد جيبون، وهيردر، وهيجل« سوف تصدر قريبا باللغة الفرنسية.

في الكتاب الأول تناولت بالتفنيد والتحليل جميع الكتب

والدراسات التي قدمها المستشرقون ابتداء من كتاب «تاريخ القرآن» لنيلدكه شيخ المستشرقون الألمان عام ١٨٦٠ وحتى كتاب «بل» الإنجليزي الذي ظهر عام ١٩٥٣».

بينما رصدتُ فى الكتاب الثانى ما كتبه «أشبرنجر» عن حياة النبى فى ثلاثة أجزاء (عام ١٨٧٣) حتى آخر الكتب التي ظهرت في هذا الموضوع وأهمها أربعة هي:

- كتاب «محمد» لجودفروا جيجو بنين الأستاذ بالسوريون والذي تتلمذ على يديه زكي مبارك.

- كتاب «محمد في مكة» للمستشرق الإنجليزي ونتجمري وات.

- كتاب «محمد في المدينة» لنفس المؤلف.

- كتاب «محمد» لمكسيم دود نسون.

واستطرد د. بدوي يقول مُعلقاً:

في كل هذه الكتب كنت أقرأ جيدا كل ما جاء فيها ثم أضع ردودي عليها في فصول من خلال فضح الحجج الواهية التي يستند إليها الأوروبيون في هذه الكتابات المُغرضة. وهكذا تمثل مؤلفاتي - في تقديري - دفاعا قويا عن الإسلام خصوصا بعد ما لاحظت أن الإسلام قد تُعرّض - بحق - لهجمة صليبية غادرة في السنوات

الأخيرة جسّدها كتاب «الآيات الشيطانية» لسلمان رشدي بينما انشغل أهله عنه، وتقاعس رجاله عن القيام بهذا الدور الدفاعي.

سألت:

• هل يمكن أن نعتبر كتبك الثلاثة التي ذكرتها هي مجرد رد على سلمان رشدي؟!

صرخ د. بدوي في وجهي وقال:

– أنا لا أرد على سلمان رشدي فحسب، ولكني أرد على كل منتقدي الإسلام والطاعنين في حياة محمد ﷺ كما أسلفت.. وكما يبدو من عناوين مؤلفاتي، لكن المحقق أن الغرب مايزال يحمل على الإسلام ويُضمر له الشر في داخله. وما دفاعه عن كتاب سلمان رشدي إلا ترجمة حقيقية لحقده على الإسلام والمسلمين وإن تذرع بحجة عرجاء هي حماية حرية الفكر!

ثم أشار د. بدوي إلى صحيفة لوموند التي كان قد طواها أمامه على المنضدة وقال:

إنهم مازالوا يكذبون، ففي هذه الصحيفة مقالة طويلة تتكلم عن الكتاب وكأنه أسطورة مع أنه فارغ – في رأيي من كل معنى، اللهم إلا معنى الحرب الصليبية الكامنة في النفوس والتي فجرها الكتاب فكشفت عن مكنونها الأسود!

● قلت في تردد: [الزحف على جبهتين]

.. لكن كيف لي أن أفهم أن يدافع د. بدوي (صاحب كتاب الزمان الوجودي والمتحمس للفكر الوجودي عامة في الشرق) عن الإسلام ويكاد يعتبر أن كتاباته الأخيرة ليست إلا وقوفا في وجه الهجمة الصليبية التي تعرض لها الإسلام في القرب مؤخراً؟

قال مُتعجبا:

- وما وجه الغرابة في ذلك؟ يبدو أن الكثيرين قد غاب عن بالهم أنني أزحف على جبهتين منذ إنتاجي العلمي الأول، الجبهة الأولى هي الجبهة الفلسفية الإنسانية (العامة والكلية) والجبهة الثانية هي الجبهة الإسلامية. ولا أعتقد أنني عندما أصدرت كتابي الأول عن نيتشه عام ١٩٣٩ ثم أصدرت كتابي الثاني عن التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية قد أتيتُ بذلك شيئا نُكرا!

لقد اعتدت منذ بواكير حياتي الفكرية أن أسير على هذه الخطة حتى اليوم، فهذه المؤلفات الثلاثة التي تدور حول القرآن وحياة محمد والإسلام عامة تلت كتابي ذو الأربعة أجزاء عن عمانويل كانت، وكتابي عن هيجل ثم موسوعتي الفلسفية. وهكذا فعندما أضع مُؤلفا في الفلسفة العالمية لابد أن يعقبه كتاب آخر في الفكر الإسلامي.

ثم استطرد يقول:

- وكم أود أن يفهم الناس عني هذه الخطة حتى لا ينزلقوا في تفسيرات لا أساس لها من الصحة كما فعل أحمد بهاء الدين في مقالة له يُفسر فيها اتجاه طه حسين وبعض مُعاصريه للكتابات الإسلامية في أخريات أيامهم بأنها نوع من الرجوع أو العودة إلى المنبع التي تتمشى مع تقدم السن!

عدت أسأل د. بدوي:

لقد سمعت أن اليونسكو كانت تستعد لتنظيم احتفال خاص بعميد الأدب العربي طه حسين بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لميلاده.. فما رأيك؟ فقال: كنت قد اقترحت على إدارة اليونسكو عمل هذا الاحتفال الذي سيكون في نفس يوم ميلاد العميد وهو ١٤ نوفمبر القادم، وكم كان بودي أن يكون احتفالاً عالميا لكن اليونسكو اعتذرت عن ذلك وتذرعت بحجة عدم وجود ميزانية (وقد تصل إلى ٢٠ ألف دولار) ولذلك سيكون الاحتفال قاصراً على محاضرتين الأولى لي عن طه حسين والثانية يقدمها جاك بيرك.

• قلت.. ألا تعتقد أن عباس العقاد يستحق أيضا التكريم مع طه حسين باعتبار أن هذا العام يصادف الذكرى المئوية الأولى لميلاده أيضاً؟

اغتاظ د. بدوي أو هكذا بدالي، والتفت نحوي صارخاً وقال:

- من هو عباس العقاد هذا الذي يستحق أن تكرمه اليونسكو، يبدو أنك واهم! إن العقاد لم يقدم أي شيء للفكر العربي يستحق أي نوع من التكريم. إنه رجل هامشي عاش ومات دون أن يشعر به أحد في دنيا الأدب أو الفكر. ثم استطرد يقول دون أن يفارقه غيظه:

لم يحدث يوما أن تمكن رجل - أي رجل - من تثقيف نفسه بنفسه واستطاع أن يترك لنا حصادا فكريا وأدبيا ذا بال. لأنه في أحسن الأحوال ليس إلا مجرد قارئ، يقرأ كيفما اتفق!

ومن المغالطات الكبرى أن نزعم أنه يعرف مناهج البحث الأكاديمية مثل غيره من الدارسين في الجامعات.

ثم أضاف يقول:

عباس العقاد هو هذا الرجل، وهو ما تؤكده كل كتاباته السطحية غير العميقة. ولأمر ما قال عنه صادق الرافعي أنه يكتب حسب البريد الأدبي الوارد من انجلترا! بمعنى أن ثقافته القشرية لا تسمح له بغير التعليق على بعض المقالات التي يتضمنها مطبوعة الملحق الأدبي الإنجليزية.

• قلت: أعتقد أنه ليس عيبا ألا تُتاح للعقاد أن ينخرط في سلك دراسة أكاديمية فأذكر أن الكثيرين ومن بينهم أنيس منصور يرون أن

هذه بالذات هي أحد مواطن تفوق العقاد، فيضرب أنيس منصور مثلاً على ذلك بفلاسفة ومفكرين أفذاذ لم تمنعهم عدم الدراسة الأكاديمية المنظمة من النبوغ أمثال الأمام الغزالي وأفلاطون..

فانبرى د. بدوي يقول:

أرجو أن تعتقد أنني عندما أصف العقاد بالسطحية إنما أقول رأيا موضوعيا بعيدا عن المحاباة! لأن الإنسان الذي يثقف نفسه بنفسه -كحال العقاد- يعتقد أن كلمة يقرأها هي اكتشاف جديد بالنسبة له!!

أما بالنسبة لما تقوله على لسان أنيس منصور فأعتقد أنه ليس صحيحا تماما، فالإمام الغزالي قد درس على: إمام الحرمين الجويني، أما أفلاطون وإن لم يدرس دراسة أكاديمية، ألا أنه درس على علماء كثيرين.

وأضاف يقول:

ثم إن أفلاطون لم يكتب في تاريخ الفلسفة كما حاول العقاد أن يكتب (وهو ما يحتاج إلى دراسة منهجية وأكاديمية) ولكنه كتب في الفلسفة.. وهناك فارق كبير بين النوعين من الكتابة ناهيك عن اختلاف الأزمنة التي عاش فيها كل منهما.

بعد لحظة صمت قصيرة تابع د. بدوي يقول:

على الرغم من أني لم أقرأ في كتاب أنيس منصور حول صالون العقاد سوى بضع مقالات إلا أنني أؤكد لك أن أنيس منصور قد كشف بنفسه فيها ضحالة أستاذه العقاد.. عندما ذكر أن العقاد في تفسيره لأصل اسم «مرسي» رأي أنه يعود إلى «مرسيه» في جنوب أسبانيا بينما اسم مرسى يعود في الأصل إلى اسم المرسي أبو العباس الذي اعتاد الناس أن يسمون أسماءهم باسمه تيمناً به وبركة باعتباره من أولياء الله الصالحين.. وكذلك الحال مع اسم بدوي الذي يرجع إلى اسم السيد البدوي!

ثم علّق د. بدوي على ذلك بقوله:

في رأيي لقد أساء أنيس منصور إلى العقاد في هذا الكتاب وأكاد أقترح أن يتم تغيير اسم الكتاب من «في صالون العقاد كانت لنا أيام» إلى اسم آخر هو: أنيس منصور يبهدل عباس العقاد، أو العقاد يتقمص شخصية أنيس منصور!

قبل أن أهم بطرح سؤالي الأخير على د. بدوي أضاف يقول: أنيس منصور كان من تلاميذي المقربين، كما كان مُتفوقاً في دراسته ولعل النقيصة الوحيدة عنده هي حبه للعقاد وإن كنت لا أذكر أنه حدثني يوما عن حضوره لندوات العقاد.

قلت أخيرا: أعتقد يا دكتور عبد الرحمن أن عباس العقاد وطه حسين لم يكونا في واقع الأمر عدوين لدودين كما يصورهما البعض،

وأن العداء الحقيقي لم يأت إلا من تعصب تلاميذهما.. فالرجلان كانا -لاشك- رائدين ومصلحين وتركا معا بصمات قوية في تاريخ الفكر العربي المعاصر.

فأجاب د. بدوي يقول:

هذا زعم باطل فطه حسين لم يكن يطيق العقاد وكذلك صاحبك العقاد لم يكن يتحمل طه حسين، فالاختلاف بينهما يشمل الأمزجة والثقافات، كما يشمل التوجهات السياسية وغير السياسية.. فبينما كان العقاد يناصر حزب الوفد كان طه حسين من مؤيدي الحزب المعارض (الأحرار الدستوريين) وبينما كان العقاد يرى في شخصية سعد زغلول الكمال الذي لا يشوبه نقص كان طه حسين يكتب عن سعد زغلول مقالات من أبشع ما كُتب عنه.

كما أن سعد زغلول نفسه هو الذي حرّض النائب الوفدي البنان (نائب الجمالية) ليطالب بإحالة طه حسين إلى النائب العام بعد الضجة التي أثارها كتابه في الشعر الجاهلي».

ثم ختم د. بدوي حديثه بقوله:

العقاد شيء وطه حسين شيء آخر ويكفي أن تتعرف على مصادر ثقافتهما لتدرك الفرق الشاسع والاختلاف الجوهري بين الرجلين.

إسلاميات بدوي في الميزان

يرى البعض أن الدارس لحياة وفكر د. عبد الرحمن بدوي سيكتشف بنفسه مفارقة عجيبة في تطوره الفكري. فالرجل ارتبط اسمه في ذهن المثقف العربي بالفلسفة الوجودية منذ بواكير حياته الفكرية وحصوله على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة في عام ١٩٤٣ حول موضوع شهير أثار جدلاً في حينه وهو «الزمان الوجودي»، وبات معروفا أنه البوق الدعائي للفكر الوجودي في الشرق العربي.

لأنه لم يترك «شاردة أو واردة» في تاريخ الفلسفة الوجودية إلا وأتي عليها بعقله الجبار، وبأسلوبه الساحر، فأخرج لنا عددا ضخما من المؤلفات التي بسطت للقارئ العربي أفكار هذه الفلسفة منذ كيركجورد وهيدجر.. حتى سارتر. إلا أن هذا الاهتمام الخاص من جانب د. بدوي بالفكر الوجودي لم يُبعد عن دائرة الفكر الإسلامي.. وهنا - كما يعتقد هذا البعض - موطن المفارقة!

فكتابات بدوي الإسلامية التي تتوزع بين التأليف والتأريخ

والتحقيق تكاد تلتهم نصف إنتاجه الفكري والفلسفي.. ناهيك عن أنه في السنوات العشر الأخيرة كاد يتفرغ تماما للتأليف والترجمة في الحقل الإسلامي.

فأصدر كتابين باللغة الفرنسية الأول بعنوان «دفاع عن القرآن ضد منتقديه» تعرّض فيه إلى كل ما قاله أشهر المستشرقين الغربيين المتخصصين في الدراسات القرآنية، حول لغة القرآن ومعانيه...

والثاني بعنوان «دفاع عن حياة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ضد الطامعين فيها ويتناول بالمناقشة والتحليل كافة التهم التي ألصقها الباحثون الغربيون بالنبيّ الكريم سواء الخاصة بطفولته وصباه، أو بحياته الزوجية، أو بعلاقته ببعض الصحابة.

كما انتهى الدكتور بدوي مؤخرا من ترجمة مجلد ضخم يقع في نحو ١٤٠٠ صفحة هو كتاب «السيرة النبوية» لإسحاق بن هشام، الذي استغرقت ترجمته نحو عامين، وهو أفضل كتاب في السيرة النبوية قاطبة.

النضال على جبهتين

وفي هذا الصدد أذكر أني سألت د. بدوي عن تفسيره لاهتمامه بهذين الموضوعين (الفكر الوجودي، والفكر الإسلامي) فأوضح أنه، ومنذ بداية حياته الفكرية يناضل على جبهتين، جبهة الفلسفة العامة، بما فيها الفلسفة الوجودية، وجبهة الفكر الإسلامي. تناقض بينهما على الأقل في مجال البحث والتأريخ للأفكار.

ونعتقد -نحن- أن الدكتور عبد الرحمن بدوي قد يكون مُحقاً في هذا التفسير لعدة أسباب منها: أن مجال البحث -كموضوع- لا يهم كثيرا فحسبه يتعلق بتاريخ الأفكار وتطورها، بآرائه العلمية اللازمة وهي «المنهج».

أما السبب الثاني فهو أن د. بدوي، وعلى الرغم من ولعه بالفلسفة الوجودية إلا أنه ليس بعيدا عن بؤرة الدين. فأطروحته العلمية التي حصل بها على درجة الدكتوراه تحت إشراف طه حسين ومصطفى عبد الرازق، ومنصور فهمي، تعج قائمة مراجعها بأسماء كبار الفلاسفة الوجوديين المؤمنين مثل جابرييل مارسيل، وياسبرز،

وكيركيجورد.. أي أن بدوي – والحالة هذه- محسوب على الشق الوجودي الإيماني، وليس الإلحادي.

أما السبب الثالث فهو أن بدوي نفسه يعترف بأنه قد اعتاد على أن يعمل على الجبهتين (الوجودية والإسلامية) وأن تصدر مؤلفاته تباعاً فيهما.. فلا يكاد يمر عام أو عامان حتى يصدر له إما كتاب في الفلسفة، أو كتاب في التاريخ الإسلامي.

إحباط أم رغبة في الثراء؟

هذا على كل حال – ما يقوله الدكتور عبد الرحمن بدوي، فالبعض منهم يرى أن الدكتور بدوي لم يغرق حتى أذنيه في الكتابات الإسلامية إلا بعد أن شعر بفشل تقديم الفكر الغربي إلى أبناء العربية من خلال مترجماته العديدة. والدليل على ذلك هو الإحباط الذي يعاني منه د. بدوي نفسه، ويكاد يفصح عنه لكل من يلقاه أو يتحدث إليه، فها هو يُعلن في أكثر من مناسبة، وفي حد كبير من المرارة أن «العقلية العربية ماتزال جامدة.. أما سماء الثقافة العربية فلم يعد يُسمع فيها سوى نعيق الغربان.. وكل يوم يمر علينا يُبعدنا أعواماً عن ركب الحضارة»!

أما البعض الآخر من منتقدي د.بدوي فيذهب إلى أنه لم يتجه بكليته إلى التأليف والتحقيق والترجمة في الفكر الإسلامي إلا لأنه أدرك مؤخرا أن هذا الاتجاه هو الذي يعود عليه بالنفع المادي الذي يمكنه من الانتقال والارتحال!

ولاشك أن هذا الرأي الخاص بتفسير الاتجاه الإسلامي عند

بدوي هو رأي قديم، ذكره قبل نحو نصف قرن بعض ممن تصدوا لتفسير ظاهرة الكتابات الإسلامية عند كبار كتابنا مثل عباس العقاد، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل. وهو ما يعني أنه اتهام شائع لكل من يكتب في القضايا الإسلامية ومن ثم فهو لا يحمل -في نظرنا- أي خصوصية للدكتور بدوي الذي طرق هذا الباب كغيره مَن المعاصرين.

وأيا كان أمر هذه التفسيرات الخاصة باتجاه بدوي الإسلامي، فالمحقق أن الرجل بعد أن كتب وألف، وحقق نحو خمسين كتابا حول الإسلام، يعتبر اليوم من كبار العلماء في التاريخ الإسلامي، وعلينا أن نتعامل مع إسلامياته بمنطق علمي جاد لا نكتفي بمجرد التعليقات أو توجيه الاتهامات الجزافية.. سيما وأن د. بدوي يشعر بالمرارة الشديدة بسبب تجاهل الكثيرين لكتاباته الإسلامية.. فعندما التقيت به مؤخراً قال في أسلوب لا يخلو من تهكم:

«لقد كرست كل جهودي في السنوات الأخيرة للدفاع عن الإسلام وتصديت بالتفنيد والتحليل لكل الكتابات الغربية المُغرضة لكن لا أحد في عالمنا الإسلامي يدري بي، أو يكاد يحفل بما أكتب!

«والمؤسف أنهم -سامحهم الله- لا يحفلون إلا بكتابات ساذجة تضر الإسلام أكثر مما تفيده».

ترجمات القرآن.. إلى أين؟

وبعد أن طاف بي الرجل مكتبات الحي اللاتيني وقف أمام قسم الإسلاميات وقال:

«ما يحزنني بحق هو أن الآن كل من «هب ودب» من الغربيين بات يعطي لنفسه الحق في ترجمة القرآن الكريم.

« وكم ساءني أن يقوم باحث فرنسي من أصل يهودي يُدعى شوراكى قام مؤخرا بوضع ترجمة للقرآن الكريم أعتبرها عارا على الترجمة والمترجمين في كل زمان. لأنها مليئة بالاعتداءات الصارخة على قداسة النص القرآني.

فشوراكى استوحى معانيه ومدلولاته فى الترجمة من ألفاظ حسيّة كان من نتيجتها أن امتلأ النص المترجم بتعبيرات فاضحة! فكلمة «الرحمن» – على سبيل المثال– قد اشتق معناها من كلمة «رحم». كذلك كلمة «الحمد» قد رجع بها إلى أصل فعل «الرغبة».

ولكى يخفى شوراكي جهله بمعاني القرآن وألفاظه ودلالاته

زج- في الصفحة الأولى التي قدم بها ترجمته - باسم د. محمود العزب مدرس اللغات السامية بجامعة الأزهر، ليوهم القارئ بأن هذه الترجمة لم تصدر إلا بعلم وموافقة جامعة الأزهر.

لكني أشك كثيرا في أن هذا المُدرس المسكين قد قرأ هذه الترجمة التي تقطر سماً وحقداً على الإسلام والمسلمين! وعندما سألته عن الترجمة التي وضعها قبل فترة جاك بيرك شيخ المستشرقين الفرنسيين فأجاب د. بدوي يقول: إنني أعرف جاك بيرك جيدا منذ سنوات، وتربطني به علاقة طيبة. وكان يستعين بي في مراجعة كل مؤلفاته قبل أن يصدرها باستثناء كتاب واحد أصدره عندما كنت في لبنان.

وليس بوسعي الآن أن أعطي حُكماً على ترجمته لأنني لم أنته من قراءتها بعد. لكن يبدو أنها جيدة على كل حال.

حميدو الله.. أفضل مترجم

ثم استطرد يقول:

لكنني أعتقد أن أهم ترجمة فرنسية للقرآن الكريم هي الترجمة التي وضعها الكاتب الإسلامي المعروف حميدو الله.

وختم د. بدوي حديثه معي مُشيرا إلى أنه سيُعطي للإسلاميات في الفترة القادمة مساحة أكبر ضمن اهتماماته الأكايمية والبحثية كما

يعتزم عمل دراسة نقدية لكل الترجمات الفرنسية التي صدرت للقرآن الكريم في السنوات العشر الأخيرة.

وأيا كان الأمر، فلئن كان صعباً على المفكر - أي مفكر - أن يكتب أو يبحث فيما يعتقد البعض أنه متناقضاً كالفلسفة الوجودية والإسلام، أرى أن د. عبد الرحمن بدوي يجب أن يكون الاستثناء في هذا المجال ليس فقط لأنه يملك زمام المناهج العلمية، ويتقن عدة لغات أوروبية إجادة تامة كاللغة الفرنسية والإنجليزية والألمانية، والأسبانية، واليونانية، واللاتينية ولكن أيضا لأنه أبدع في هذين المجالين (الوجودية والإسلام) إبداعاً متميزا فاستحق بذلك أن يكون أحد أبرز مؤرخي الإسلام المعاصرين، فضلاً عن أنه أول فيلسوف مصري كما بشرنا بذلك طه حسين قبل نحو نصف قرن.

لماذا يغضب بدوي؟!

من المُضحكات المبكيات في زماننا العربي الرديء أن أستاذنا الكبير د. عبد الرحمن بدوي قد وضع مؤلفا ضخما في جزأين عبارة عن ترجمة ذاتية لحياته العريضة اختار له اسم «سيرة حياة» ثم اتصل بواحدة من كبريات دور النشر في القاهرة يسألها عن إمكانية أن تقوم بطبع الكتاب.. وشاءت أقداري أن أكون قريبا من الوسطاء بين دار النشر وبين الدكتور بدوي.

وبعد نحو ثلاثة أشهر، وصل رد مُقتضب من المسؤول عن النشر يقول فيه:

مع احترامنا وتقديرنا للمفكر الكبير د. عبد الرحمن بدوي، إلا أننا وبعد دراسة جدوى اقتصادية لمؤلفه تبين أن كتابه لن يكون مربحا، ولهذا نعتذر عن نشره!

وأذكر أنني عندما أبلغت الدكتور عبد الرحمن بدوي بنص ومضمون هذا الرد هاج وماج، وأخذ يلعن على طريقته المعهودة هذا الزمان -زمان الأعاجيب- الذي جعل مجموعة من الجهلة -على

حد تعبيره- يتحكمون فيما يُنشر، وما لا يُنشر..

وقال دون أن يفارقه سخطه:

لو كانت بيروت لم تتعرض لما تعرضت له من دمار وحروب أهلية لما اضطررت أن أعيش هذه اللحظة التي يُرفض فيها عمل من أعمالي.. فالنشر في بيروت كان سهلاً طيّعا.

وطوى الرجل أحزانه في صدره، أو هكذا بدا لي، وتركني على قارعة الطريق في منطقة الحي اللاتيني، ومشى على الفور دون أن يلتفت نحوي!

ولا شك أن د. عبد الرحمن بدوي على حق في موقفه، ففي الوقت الذي ترفض فيه دار النشر «المحترمة» نشر سيرة حياته تمتلئ الساحة في مصر بعشرات بل بمئات الكتب التي تروي قصة «بنت اسمها شريهان» وحكاية «ولد اسمه عدوية»..

ناهيك عن الكتب الصفراء الكثيرة التي تتحدث عن عذاب القبر، والثعبان الأقرع...الخ.

وغاب عن بال المسؤولين في هذه الدار، أن ما خطه الدكتور بدوي بيده حول سيرة حياته هو أمر بالغ الأهمية، ليس فقط لأننا - أبناء هذا الجيل - في حاجة شديدة للتعرف على حياة هذا الرجل الحافلة بالأحداث والمواقف، والتي بدأها مبكرا بتفوق أشاد به

الدكتور طه حسين، وأعلن على الملأ عقب مشاركته في مناقشة رسالته للدكتوراه. وكانت بعنوان: «الزمان الوجودي».. أنه يبشر الجميع بمولد فيلسوف مصري جديد! فضلاً عن أن د. بدوي هو راهب علم حقيقي فقد رفض الزواج والانخراط في الحيوات الاجتماعية المتشعبة ورأي أن يقضي وقته باحثا ومنقبا ومحققا في المخطوطات القديمة أو مؤلفا في تاريخ الفلسفة ووضع أكثر من مائة مؤلف في تاريخ الفكر الإنساني.

كما أن سيرة حياة الرجل هي قبل كل شئ تأريخ للثقافة العربية بكل إحباطاتها وانتصاراتها، فقد درس في القاهرة ثم انتقل لبضع سنوات إلى الكويت وليبيا ودرس على يديه طلاب الفلسفة في كل أنحاء العالم العربي حتى بات يُطلق عليه -بحق- أستاذ أساتذة الفلسفة في العالم العربي.

لكن المؤسف أن دار النشر «إياها» لم تضع في حياتها كل هذا «الثقل الفكري» للرجل وضربت بطلبه عُرض الحائط وجعلته يتحسر على بيروت.. التي قال أستاذه طه حسين يوما عنها إنها بؤرة الثقافة الثانية في الوطن العربي بعد القاهرة!

وهنا أود أن أذكر واقعة قفزت تواً إلى ذاكرتي.. ليس من قبيل تقديم العذر لمن رأوا أن كتاب د. بدوي غير مجد اقتصاديا، وإنما للتدليل على أن واقعنا الثقافي العام، وبدون الدخول في تفريعات أو

تفاصيل يعيش في خطر منذ سنوات..

الواقعة هي أن مُصادفات حياتي الكثيرة في باريس قد جمعتني يوما بنخبة من المبدعين أذكر منهم الروائيين الثلاثة:

إدوار الخراط، وابراهيم عبد المجيد، وإبراهيم أصلان، والكاتب المصري جميل عطيه إبراهيم الذي يعيش في جنيف ونتابع كتاباته بشغف وإعجاب شديدين.. وكان برفقتهم جميعا المهندس إبراهيم المعلم صاحب دار نشر «الشروق» المعروفة في القاهرة.

وكان طبيعياً أن يتطرق الحديث إلى كافة جوانب الإبداع والثقافة والنشر. وبعد أن أكد الجميع أن الإقبال على القراءة عامة، وقراءة الرواية بشكل خاص ينحسر من جيل إلى جيل، ولم يعد مهما - والحالة هذه - أن يكون مؤلف الرواية مشهوراً كنجيب محفوظ أو مغموراً كأي قاص ناشئ، روى إبراهيم المعلم حكاية ذات مغزى فقال:

عقب فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب في عام ١٩٨٨ قمت على طريقة المكتبات الأجنبية، بعمل حالة طوارئ في رفوف وفاترينات المكتبة في شارع الفجالة، وضعت معظم إنتاج الرجل في صدر المكتبة مع صورة كبيرة له، مُزدانة بالألوان والأضواء.

وبعد نحو عشرة أيام تغيبت فيها عن المكتبة لقضاء بعض حوائجي، عدت لأكتشف أن كم الروايات «المحفوظية» الهائل لم

يبرح مكانه، وأن أحداً لم يحاول أن يشتري رواية واحدة ولو على سبيل إشباع الفضول أو قراءة هذا «الرجل المصري» الذي فاز بنوبل وأصبح حديث الأوساط الثقافية والإعلامية في العالم بعدة أسابيع متتالية.

وبينما كنا -أصدقائي وأنا- غارقين على رصيف المكتبة في مناقشة هذه الحالة - الظاهرة، تبين لي أن الروايات القليلة المترجمة إلى اللغة الإنجليزية وحدها هي التي نفذت من المكتبة، والسبب هو أن السياح الأجانب قد سمعوا بخبر فوز الرجل بالجائزة، فانتهزوا فرصة وجودهم في القاهرة واشتروا كل النسخ الإنجليزية المتوفرة لدينا!

هذه الواقعة أذكرها - ليس عزاء وسلوى لأستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي تألم كثيرا وتألمنا نحن معه؛ عندما رفضت دار النشر الكبرى طبع سيرة حياته، ولكن أذكرها وفي النفس حسرة، لعلنا يوما نفيق أو على الأقل نشفى من هذا المرض الذي أفقدنا «حاسة التمييز» فخلطنا الموازين وتعاملنا مع «المنتوج العقلي والذهني والوجداني» كما نتعامل مع أقفاص الطماطم، أو صناديق اللوبيا!

اعتذار واجب لفيلسوفنا الراحل بدوي

.. في كل بلاد الدنيا يُثاب الإنسان على عمله، فيُكافأ إذا أحسن، ويُعاقب إذا أخطأ.. وفي كل بلاد الدنيا تؤدي المقدمات الصحيحة إلى نتائج صحيحة، وتؤدي المقدمات الفاسدة إلى نتائج فاسدة.. وفي كل بلاد الدنيا يكون الجد والاجتهاد والتفوق طريقا للترقي (إلا في بلادنا المحروسة) فالعكس هو الصحيح.. فقد يكون المرء أبكما لكن ذلك لا يمنع من جلوسه على مقعد الخطيب المفوّه -وقد يكون فاشلاً لكنه -مع ذلك- يحصل على أعلى أوسمة النجاح والتميّز.. وقد يكون جاهلاً مثل دابة لكن تُقام الأفراح والأهازيج لتكريمه في عيد العلم.. هذا ما حدثني به -في مرارة- فيلسوفنا الراحل عبد الرحمن بدوي الذي كان ينعي على (مصر وأهلها) تردي أوضاعها، وانقلاب معاييرها، واختلاط الصالح والطالح فيها مؤكداً أنها بالفعل - وكما قال المتنبي بلد المتناقضات..

وكنت سألت الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي كانت تربطني به صلة قوية في باريس (في العقد الأخير من القرن الماضي) عن السبب الذي جعله (يهجر) مصر، ويفضل العيش في حجرة (متواضعة) أعلى

فندق لوتيسيا بالحي اللاتيني فأجابني في لوعة وحسرة يقول: لأن مصر تكره النابهين والنابغين من أبنائها، وتتعمد تجاهلهم.. وربما التنكيل بهم – إذا لزم الأمر-. فذكاء المرء محسوب عليه في مصر! فإذا كنت واعداً وقادراً على التفكير الصحيح، فلا مكان لك إلا خارج قاطرة القيادة..

وما عجبت له أن الدكتور عبد الرحمن بدوي صاغ – في دقة كعادته – قناعته التالية:

كلما كانت رأسك فارغة وجوفاء (كالطبل) كنت المرشح الأول لنيل الدرجات العليا، والجلوس في مقاعد ذوي النفوذ والسلطان والحكم والقرار.. فالعمدة في القرية لم يعد –كما كان الحال سابقا- الأكثر وعياً وثقافة، وأريحية.. بيته مفتوح للجميع، وخدماته تصل إلى أبناء القرية جميعا دون تمييز.. وإنما أصبح الأكثر نفاقا، وجهلاً، وتنصتاً على أبواب وشبابيك أهله وذويه (من يحب منهم ومن لا يحب) وبعيون زائفة، وقلب جريح، وصوت مُشبع بالحزن والألم استطرد الفيلسوف عبد الرحمن بدوي يقول على طريقة أهل المنطق:

هذا الذي يحدث في اختيار العُمدة ينطبق – يا بني – على اختيار عميد الكلية، ورئيس الجامعة، والوزراء وشاغلي المواقع التنفيذية والأكثر حساسية.. بمعنى أنه: بقدر جهالتك، بقدر تموقعك في المراكز العليا!!

وأشهد الله أن هذا الحال الذي دار بيني وبين الفيلسوف الراحل عبد الرحمن بدوي، لا يكاد يغيب بتفاصيله وثناياه ومدلولاته (الحزينة والكئيبة) عن بالي خصوصاً في المرات التي يبلغ السيل فيها الزبى وتتجاوز الأمور حدودها المسموح بها وغير المسموح!

فكلنا يذكر أن وزير الإسكان والتعمير السابق محمد إبراهيم سليمان أتى من الكوارث في حق مصر وشعبها ما يشيب له شعر الولدان! وكان يتسرف في صحراء مصر وكأنها أرضه التي ورثها عن الجدود والأسلاف، فباع، وجامل، وزوّر، وخطف، واستحوذ وأتى بتصرفات تؤدي حتماً لا أقول إلى المقصلة ولكن إلى السجن وراء القضبان..

لكن لأن مصر بلد المتناقضات ومنطق الأشياء يسير فيها (معكوساً) شاهدنا بعيوننا وتابعنا بجوارحنا حفل تكريم مهيب تسلم فيه محمد إبراهيم سليمان أعلى وسام على ما ارتكب من جرائم - لعل آخر ما ظهر منها بيعه لزوجته وأولاده وأصدقائه ومريديه وندمائه ومسامريه آلاف الأفدنة!

هنا قفزت صورة الفيلسوف عبد الرحمن بدوي الذي خلته يصرخ لافتا الأنظار إلى هذه الجريمة، إذ لا يعقل أن يحل التكريم والإشادة محل التقريع والإدانة والمحاكمة، لكن لأنها مصر.. يحدث ذلك عيانا جهاراً!!

والمثال الآخر هو وزير الثقافة فاروق حسنى الذي ارتكب في حق مصر أبشع الجرائم وجثم على صدورنا ٢٤ عاماً في موقع الوزراة، ويخرج من مكتبه -بين فترة وأخرى- الفاسدون من كل لون وصنف، وقصص مستشاره الصحفي الخاص، ومدير مكتبه وكاتم أسراره تترى على كل لسان.. ويحرق ٥٩ مبدعاً في مسرحية هزلية في بني سويف ثم عندما تثور كرامة مصر ويغلي الدم في عروق عدد كبير من مثقفي الأمة، يخرج لسانه لهم جميعا رافضاً أن يبدي ندماً أو يقدم اعتذاراً ولأنه – فعل ذلك – وغيره كثير- كان لابد من تكريمه بترشيحه مديراً لمنظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو).. وكان الأولى والأصح أن يعاقب ألف مرة، وأن يُجلد في ميدان عام ليكون عبرة ومثلاً لكل من يأوي فاسداً أو يقتل مبدعاً أو يستهين بقيّم الأمة.. وهنا تقفز مرة أخرى صورة عبد الرحمن بدوي الذي يندهش ألف مرة من أن تقف الدولة وراء فاروق حسني الذي لم تذكر له مصر مأثرة واحدة، وتقف في نفس الوقت ضد شخص آخر كان خير سفير لمصر في المحافل الدولية هو إسماعيل سراج الدين.. ولأن الفم يمتلئ بالمرارة لمجرد ذكر هذه الوقائع التي تكتظ بها مصر المحروسة، فوزير التعليم حسين كامل بهاء الدين استّن سُنة الشقق المفروشة التي كانت وكراً للغش الجماعي لأبناء علية القوم، ويعصف بعقول وجيوب شعب مصر بسبب شرعنته للدروس الخصوصية، بدلاً من عقابه تم تكريمه.. يا

للهول.. ياللفضيحة.

ووزير التعليم يسري الجمل بارك الغش الجماعي، وأغدق على المدرسين وصقور الدروس الخصوصية يحلقون في سماء مصر غير عابئين بأحد.. ولذلك بقي وسيبقى حتى يُجهز على المنظومة التعليمية برمتها.. وأخيراً.. لابد أن أكتب اعتذارا واجباً للدكتور عبد الرحمن بدوي الذي ظننته في البداية مُتجنياً على الحقيقة، فإذا به لم ينطق غيرها..

مولد سيدي عبد الرحمن الـ«بدوي»

لا أحسب أن الجدل الذي يثور بين وقت وآخر حول الفيلسوف المصري عبد الرحمن بدوي سوف يقصر و يزول لأسباب منها أن بدوي قد مات، ومن عاداتنا في مصر أن نقيم سرادقات الموالد والعزاء بعد الموت، ولا نكثر من أحاديث المدح أو القدح إلا بعد الغياب، وكذلك لأن بدوي في حد ذاته هو شخص مثير للجدل حقا، وتعكس سلوكياته جملة من التناقضات التي يختلف حولها الكثيرون وتحتاج إلى «توضيح».

ثم إنه لم يترك شخصا يعرفه أو يسمع به في الحاضر أو الماضي إلا ويخصه بحزمة من الأحكام القاسية، ولا يبالي إن كانت سوف تسره أو تغضبه، إلى حد يصدق معه القول إن د. بدوي لا يرى في الكون كاملا سوى نفسه، أما الآخرون فهم بالضرورة ناقصون!

رمقته ذات يوم جالسا على مقهى «لويبار» المجاور لنهر السين في الحي اللاتيني، فاقتربت منه وقلت في ابتسامة حذرة «لأني كنت أخاف من ردات فعله العنيفة»: هل تسمح لي بالجلوس؟

فهز رأسه موافقا بعد تردد وقال في حماسة مشوبة بالسخط: ما هذا الذي يكتبه أحمد عبد المعطي حجازي عن العلمانية وكيف يسمح «الأهرام» بنشر مثل هذه الادعاءات الباطلة «حجازي كتب مقالة يسجل فيها رأيه حول الفكر العلماني في أوائل التسعينيات»؟ فالصغير يعرف قبل الكبير أن الإسلام لا يتفق مع الفكر العلماني، فالدولة في الإسلام دين، والدين دولة، ورئيس الدولة يجب أن يجمع بين الجانبين. فكيف يزعم عبد المعطي حجازي بأن الإسلام لا يرفض العلمانية؟

قلت مقاطعا: لعله يقدم اجتهادا فكريا في هذا المجال؟! التفت د. بدوي نحوي مندهشا وقال في لهجة عنيفة: القضية ليست قضية اجتهاد فكري، وإنما هي محاولة من جانبه، وكذلك من جانب د. حسن حنفي، الذي قرأت له شيئا قريبا من هذا قبل أسبوعين لتبرير فرض العلمانية على الدولة في الإسلام ولإثبات أنهما ليسا مخالفين لهذا الدين.

بعبارة أخرى: يحاول الرجلان إيجاد نوع من «حق المواطنة» للعلمانية في الفكر الإسلامي.

قلت: يبدو أنك تتابع جيدا ما تنشره الصحف في مصر مع أنك تعطي انطباعا بأنك غير مهتم بكل ذلك؟

واصل د. بدوي حديثه الساخط «وكأني لم اقل شيئا: وقال: ألا

تعرف أن حسن حنفي تنصر على الأقل عشر سنوات عندما كان يدرس الدكتوراه في باريس وكان يقيم في الدير ليل نهار؟

قلت: لا يكفي كلامك دليلا على صحة ما تقول، فالأرجح أنه كان يتردد على الأديرة ليطلع على ما فيها من مراجع ومخطوطات.

تجاهل د. بدوي ردي وتابع يقول: لقد وقعت عيني على صورة بالحجاب لصافي ناز كاظم في مجلة «نصف الدنيا».. بالله عليك منذ متى وضعت هذه السيدة الحجاب فوق رأسها؟ هل نسيت أنها كانت من الشيوعيات المتعصبات؟ ثم فجأة انقلبت لتصبح إسلامية؟ إنني لا أفهم هذا الذي يحدث!

قلت في شيء من التحدي: الشيء نفسه يحدث معك، فكثيرون لا يفهمون كيف انتقلت أنت من الفكر الوجودي الذي كنت تتحمس له في بواكير حياتك لتصبح اليوم من المدافعين عن الإسلام؟ فلماذا تلوم صافي ناز إذن، والحالة - بقضها وقضيضها تنطبق عليك خصوصا أن الوجودية مفهوم لدى عامة الناس على الأقل بأنها متعارضة مع الإيمان؟

ارتسمت علامة الغضب بقوة على وجه الدكتور بدوي، وفوجئت به يخف الخطى، كنا نسير متجاورين في شارع الشانزلية، دون أن ينبس بكلمة، وبعد لحظات ابتعله الزحام.

سيرة ابن هشام

مرة أخرى جمعتني المصادفة به وأشهد أنه في كل مرة كان يلقاني يبدو متبرما ومنزعجا لرؤيتي، فإذا هممت بأن أتركه، ناداني، فكأنه يريدني ولا يريدني في آن واحد.

على أية حال، كنت قد اعتدت على هذا النوع من الاستقبال الغاضب، وفي كل مرة كنت أنتهز فرصة اللقاء التي قد لا تزيد على دقائق لأستمع إليه شغوفا بكل ما يقول.

وأذكر أنني اخترت في هذه المرة أن أسأله عن كتاباته الإسلامية لأنه كان يشعر بالسعادة وهو يتحدث عنها فقال:

لقد انتهيت من كتابة أربعة مؤلفات: الأول بعنوان دفاع عن القرآن ضد منتقديه، والثاني بعنوان: دفاع عن حياة محمد ضد الطاعنين فيها. والثالث بعنوان: الإسلام في نظر فولتير وإدوارد جيبون، وهيردر وهيجل، والرابع ترجمة لجزء من السيرة النبوية لإسحاق بن هشام.

ثم استطرد يقول: في كتابي الأول تناولت بالتفنيد والتحليل جميع

الكتب والدراسات التي قدمها المشتشرقون بدءا من كتاب تاريخ القرِآن، لـ«نيلدكه» شيخ المستشرقين الألمان عام ١٨٦٠، وحتى كتاب «بل» الإنجليزي الذي ظهر عام ١٩٥٣.

ورصدت في كتابي الثاني، ما كتبه «أشبرنحر» عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أجزاء عام ١٨٧٣، حتى آخر الكتب التي ظهرت في هذا الموضوع وأهمها أربعة هي:

- كتاب «محمد» لجودفروا جيجو بنين الأستاذ بالسوربون والذي تتلمذ على يديه زكي مبارك.

- كتاب «محمد في مكة» للمستشرق الإنجليزي ونتجمري وات.

- كتاب «محمد في المدينة» لنفس المؤلف.

- كتاب «محمد» لمكسيم رودنسون.

واستطرد يقول: في كل هذه الكتب كنت أقرأ جيدا كل ما جاء بها ثم أضع ردودي عليها في فصول من خلال فضح الحجج الواهية التي يستند إليها الأوروبيون في هذه الكتابات المغرضة.

وهكذا تحتل مؤلفاتي -في تقديري- دفاعا قويا عن الإسلام، خصوصا بعدما لاحظت أن الإسلام يتعرض لهجمة صليبية غادرة في السنوات الأخيرة، جسدها كتاب «آيات شيطانية» لسلمان

رشدي، بينما انشغل أهله عنه، وتقاعس رجاله عن القيام بهذا الدور.

سألته: هل يمكن اعتبار كتبك الأربعة التي ذكرتها هي مجرد «رد» على سلمان رشدي؟

صرخ د. بدوي في وجهي وقال:

أنا لا أرد على سلمان رشدي فحسب، وإنما أرد على كل منتقدي الإسلام والطاعنين في حياة محمد كما أسلفت، وكما يبدو من عناوين مؤلفاتي، لكن المحقق أن الغرب لايزال يحمل على الإسلام ويضمر له الشر في داخله. وما دفاعه عن كتاب سلمان رشدي إلا ترجمة حقيقية لحقده على الإسلام والمسلمين، وإن تذرع بحجة عرجاء هي حماية حرية الفكر.

ثم أشار د. بدوي إلى صحيفة «لوموند» التي كان قد طواها أمامه على المنضدة وقال: إنهم مازالوا يكذبون،، ففي هذه الصحيفة مقالة طويلة تتكلم عن كتاب «آيات شيطانية» وكأنه أسطورة مع أنه فارغ - في رأيي - من كل معنى، اللهم إلا معنى الحرب الصليبية الكامنة في النفوس والتي فجرها الكتاب فكشفت عن مكنونها الأسود.

ولأن د. بدوي كان صاحب ذاكرة قوية، فوجئت به يقول: في المرة السابقة عندما التقينا تحدثت عن أن الكثيرين يتصورون أنني انتقلت من الوجودية إلى الإسلام.

والصحيح أن هؤلاء الكثيرين وأنت معهم من «الجهلاء» لأنني

منذ إنتاجي العلمي الأول أجمع بين الاتجاهين ولا أجد أن في الأمر ما يدعو للغرابة. ففي الوقت الذي أصدرت فيه كتابي الأول عن نيتشة عام ١٩٣٩ أصدرت كتابي الثاني عن التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ولست أعتقد أنني أتيت بذلك شيئاً نكرا.

وكم أود أن يفهم الناس عني هذه الخطوة حتى لا ينزلقوا في تفسيرات لا أساس لها من الصحة كما فعل أحمد بهاء الدين يوما في مقالة يفسر فيها اتجاه طه حسين وبعض معاصريه للكتابات الإسلامية في أخريات أيامهم بأنها نوع من الرجوع أو العودة إلى المنابع التي تتماشى مع تقدمهم في السن.

ثم بصوت هادئ النبرات قال: الصحيح أني اعتدت منذ بواكير حياتي الفكرية على أن أسير على خط الجمع بين الاتجاهين - الوجودي والإسلامي - فهذه المؤلفات الثلاثة التي تدور حول القرآن وحياة محمد والإسلام «إضافة إلى ترجمتي لكتاب السيرة النبوية لابن هشام» تلت كتابي ذا الأربعة أجزاء عن عمانويل كانت، وكتابي عن هيجل، ثم موسوعتي الفلسفية، وهكذا فعندما أضع مؤلفا في الفلسفة العالمية لابد أن يعقبه كتاب آخر في الفكر الإسلامي، ثم أضاف أن ترجمة السيرة النبوية لابن هشام، أمضيت فيها عامين كاملين، وهو عمل أدخل السعادة على قلبي وأعتز به كثيراً.

إني أكره هؤلاء!

في لقاء آخر فوجئت بالدكتور عبد الرحمن بدوي يسألني سؤالاً اعتبرته غريبا بعض الشيء فقال لي: - ما اسمك؟ قلت مندهشا: أبعد هذه المعرفة الطويلة تسألني عن اسمي؟

قال في غضب: نعم أسألك عن اسمك رباعيا. قلت:اسمي الرباعي هو: السعيد السعيد إسماعيل اللاوندي.

فقال:أنت مسلم إذن؟!

قلت: الحمد لله على نعمة الإسلام، لكنني يا دكتور سواء كنت مسلما أم مسيحيا فأنا مصري، قبل هذا وبعده، ولا أحسب أن هذه القضية قد تحتل في رأس مفكر موسوعي مثل أقل مساحة.. أليس كذلك؟

فقال وهو يهز رأسه متبرما من تعليقي: أيوه، أيوه، لكنني غير مقتنع ببعض الأشخاص مثل بطرس غالي، وعندما سألته، أجاب إجابات أذهلتني، لأنها لا تخرج عن حدود إجابات السذج والبسطاء، قال: إن زوجته يهودية، وإسرائيل هي التي رشحته

لمنصب أمين عام الأمم المتحدة، وأقنعت أمريكا به، فوافقت بعد أن كانت ترفض في البداية، ولم تكن تسانده سوى فرنسا.

وأضاف أيضاً: الأمين العام السابق للأمم المتحدة، كان يتحدث الفرنسية أفضل منه، وإنجليزية بطرس غالي ركيكة على لسانه، أما لغته العربية فهي عربية الصحافة الدارجة.

لم أشأ التعليق، لكنني أظهرت اختلافي مع رأيه شكلا وموضوعا، وعندما فهم ذلك، جلس صامتا بعض الوقت، ثم ألقى بقطعة معدنية ثمنا لقهوته وغادر المكان فجأة.

تملكتني الحيرة، فهذا المفكر الكبير يحشو رأسه بأمور قد نقبلها بالكاد من متوسطي التفكير ومحدودي الثقافة، ورغم ذلك يتشبث بها، ويكره أن يعترض عليها أحد، فأذكر أنه حدثني ذات مرة عن د. عبد اللطيف عبد الحليم «أبو همام» أحد تلاميذ العقاد المعروفين وقال: لقد التقيته ذات يوم في أسبانيا وسألته ماذا تفعل هنا فأجاب: أعد رسالة دكتوراه عن الشعر عند العقاد، فقلت له: هل هذا معقول؟ أتترك مصر وتأتي إلى أسبانيا لكي تكتب عن العقاد؟ هذا هراء. لأن العقاد لم يكن شاعرا حتى تكتب عنه.

وقال د. بدوي: لقد ألقيت محاضرة في أسبانيا باللغة الفرنسية ولم يحضرها عبد اللطيف، لأنه لا يعرف الفرنسية، وحدثني عن الناقد رجاء النقاش فقال: إنه جاهل ومجرم في حق الثقافة، وهو السبب في

أن تغلق مجلة الدوحة أبوابها، لأنه نشر مجموعة من مقالات لحسين أحمد أمين أغضبت القطريين.

وقال عن سامح كريم الذي كان بين المتحمسين لتكريم بدوي: كان يحضر بعض محاضراتي، لكنه كان يتغيب دائماً، ولم يحصل على الليسانس إلا متأخراً، وعندما تطرق الحديث بيننا إلى د.رشدي أستاذ فلسفة العلوم في باريس، قال: إنه لم يحصل على الدكتوراه إلا بشق الأنفس، وهو شخص كريه، وقد شايع تيار ماوتسي تونج، حتى أنفقت عليه الصين وتزوج من سيدة مصرية أنجب منها ولدا، ثم طلقها ثلاثا، وتزوج من سيدة فرنسية تعمل مدرسة، جاءت له بالبيت الذي يسكن فيه، وفي النهاية تمركس «أصبح ماركسياً».

وقال عن المفكر الجزائري محمد أركون إنه تلميذ الاستشراق، ومشكوك في جزائريته ولقد جنى على الإسلام بكتاباته عنه.

وقال عن الكاتب الكبير أحمد بهجت: إنه ابن شقيقة د. رشاد رشدي، وكتاباته الإسلامية لا تقنعني.

وتحدث عن أستاذ الفلسفة المعروف عزت قرني، فقال: لقد قرأت أن د. عزت قرني في إحدى الندوات العلمية قال إننا في مصر لسنا في حاجة لدراسة تاريخ الفلسفة الحديثة في أوروبا، وحسبنا أن نكرس كل جهودنا لدراسة وفهم الفكر المستنير عند الإمام محمد عبده، ثم زفر د. بدوي زفرة حامية قال: إن ذلك عار على الثقافة

والمثقفين.

قلت: أنت غاضب من عزت قرني أم من الإمام محمد عبده؟

قال: ما قاله قرني مخجل، أما محمد عبده فلا أطيق سيرته.

أما أكثر شخص صب جام غضبه عليه فكان تلميذه فؤاد زكريا، وأذكر أنه لم يتورع عن اتهامه بأبشع التهم، حتى قبيل وفاته بعدة أسابيع، وقال: إن الكويتيين أجبروه على ترك بلادهم لأنه ارتكب «معصية» هناك. وعندما سألته ما هي؟ قال وهو يوبخني: أنت تعرفها فلماذا لا تقولها أنت، فأقسمت بأنني لا أعرفها، فقال وهو مندهش.. حتى أنت كاذب؟.

وكان اللقاء الأخير

كل من تربطه صلة بفيلسوف مصر الراحل عبد الرحمن بـدوي أو يسمع به، يعرف أن روحـه مـن طبيعـة قتاليـة، ولا يتـردد في إشـعال الحرائق، وإعلان الحـرب في أي مكـان أو زمـان، وأذكـر أن المـرة الأخيرة التي التقيته فيها قبل أسابيع على سرير المرض بمعهد ناصـر انطلق كعادته في إطلاق :أحكام هنا وهناك غير عابئ بما قد تثيره من غبار».

وأشهد أن ذاكرته كانت حاضـرة بقـوة عـلى الـرغم مـن الهـزال الشديد الذي تمكن من جسده، فأضعف قواه إلى حد أنه كـان يعجـز تماما عن الحركة، وبرغم ذلك لم يكن يكـف عـن محـاولات قضـاء حوائجـه البسـيطة بنفسـه.. وكـان إذا رأى الشـخص المكلـف بمساعدته في ابتلاع الأدوية وتنظيف جسمه وثيابه كان يصرخ طالبـا إليـه أن يتـرك حجرتـه فـورا ولا يهـدأ إلا إذا غـاب –بالفعـل– عـن ناظريه.

وتفسير ذلك – حسبما يقول شقيقه د. ثروت بدوي –أنه كان قد

اعتاد طوال حياته أن يتولى أموره الشخصية بنفسه، ولذلك كان يكره أن يساعده أحد، لأن «معنى المساعدة» هو أنه ضعيف وبحاجة إلى الآخر، وهذا مالم يكن يطيقه أو يتحمله، ولهذا السبب كنا ندخل عليه في مرضه الأخير لنجد الدماء تسيل من وجهه، من جراء إصراره على أن يحلق لحيته بيده المرتعشة!.

وعندما دخل عليه أستاذنا محمود أمين العالم، هاشاً باشاً، متعجلا شفاءه لم تتغير ملامح الدكتور بدوي الصارمة، وظلت القسوة مرسومة على وجهه وكأنها محفورة فيه، وعندما تحدث معه، لم يذكر إلا أنه قبل عشرات السنين أخذ منه كتابا للنشر ولم يعطه أجره، فضحك محمود أمين العالم في مودة بالغة وقال له: كيف أعطيك أجرك والكتاب لم تسمح الظروف بنشره في ذلك الوقت، ثم أنك قد نشرته ربما طبعتين بعد ذلك، قال ذلك وهو يمد يده بحنو بالغ على كتفه النحيل.

وعندما جاء دوري، وجدته ينظر إليّ في غضب وقال: أما أنت فلن أسمح لك بالتحدث معي إلا بعد أن أفتشك بنفسي! لأنك تخفي أجهزة تسجيل صحفية في طيات ملابسك!

وفهمت أن الدكتور بدوي لايزال يذكر الحديث الذي دار بيننا في منتصف الثمانينيات في باريس، عندما منعني من التسجيل، وبرغم ذلك وجده حرفياً منشوراً على صفحات الأهرام الدولي، ناسياً أنني

كنت أجتهد في حفظ ما يقول، كما كنت أكتب خلسة بعضا من استطراداته.

ضحكت ملء شدقي، وخلعت «الجاكيت» واتجهت نحوه أدور بكل جسمي قائلا: هاأنذا يا دكتور بدوي أمامك، ففتش ما شئت، فوالله إني لم أكن قد أخفيت «تسجيلاً» في السابق حتى أخفيه اليوم!

وفي صعوبة بالغة رفع د. بدوي يده المرتعشة نحوي فاقتربت بجسمي منه حتى يطمئن ويهدأ بالاً!

ومما أذكره في هذا اللقاء الأخير مع فيلسوفنا الراحل أنه أسهب في حديثه عن آخر ما خطته يداه، وذكر أنها مسودات لنحو ٢٦ كتابا هي خلاصة ترجما من الأدب الألماني المعاصر الرومانتيكي.

وقال شقيقه د. ثروت إن المكتب الثقافي المصري في باريس كلف أحد موظفيه بجمع جميع متعلقات الدكتور بدوي وحوائجه الشخصية المتواضعة إلى جانب أوراقه الخاصة وبعض المسودات الكتابية ومنها هذه «الترجمات» التي يذكرها د. بدوي.

وما دمنا في مقام الحديث عن اللقاء الأخير مع الدكتور بدوي، فلابد أن أذكر بامتنان موقفا إنسانيا رائعا لأستاذنا محمود أمين العالم، فقد اتفق أن تأتي إحدى القنوات التليفزيونية لإجراء حوار مع الدكتور بدوي، لكنه رفض بشدة، وهاج وماج لبعض الوقت

خصوصا عندما طلبوا إليه أن يترك حجرته لكى يتم التصوير في إحدى القاعات الفسيحة بالمستشفى.

وعاند الدكتور بدوي كعادته، ورفض أن يبرح مكانه، فأُسقط في يد منتجي البرنامج، ولجؤوا إلى حيلة بريئة فطلبوا إلى أحد الممرضين أن يخبر د. بدوي بأن عليه أن يمتطي الكرسي المتحرك فوراً لأنهم بحاجة إلى عمل بعض التحاليل العاجلة خارج حجرته.. ثم إذا انطلت هذه الخدعة عليه قادوه صاغرا إلى قاعة التصوير ليتم التسجيل.. وكان محمود أمين العالم يتابع هذه المحاولات في قلق، وعيناه لا تهبطان من فوق وجه أستاذه بدوي.. وفجأة انتابته موجة عارمة من الغضب وصرخ محتجاً: ماذا تفعلون يا سادة؟

أنكم تكذبون على أستاذي بدوي. فذلك أمر لا يليق بمفكر في حجم وقامة عبد الرحمن بدوي.

وأضاف: إما أن تقولوا له الحقيقة، وإما أن تتركوه لحاله.

ثم اتجه محمود أمين العالم دون أن يفارقه غيظه نحو الباب معترضا على سوء معاملة أستاذه بدوي. وللإنصاف كان د. بدوي يتابع الحديث كطفل، يسمع صراخا، وهمسات هنا ويشاهد أشخاصاً يتحركون في عصبية هناك لكن لم يأبه بذلك. وأغلب الظن أنه كان مشغولا بأوجاعه التي هزمته وألزمته الفراش.

وهكذا، بعد أن كان هناك شخص واحد (هو د. بدوي) غاضباً،

أصبح هناك شخصان، وكان على أشقاء د. بدوي الحاضرين أن يبذلوا جهدا مضاعفا لتهدئة د. بدوي والاعتذار لمحمود أمين العالم.

وبعد مرور بعض الوقت «أنس» د. بدوي لضيوفه ومر اللقاء بسلام، وقبل أن أهم بالانصراف ملت على الفيلسوف الراحل وقلت: أما زلت يا دكتور بدوي غاضبا (ناقما) على عبد الناصر، مع أنك تقيم في معهد يحمل اسمه.. أقصد معهد ناصر؟

فصوب الرجل نحوي نظراته القاسية وكأنه يقول لي: لم يكن هناك مثلي في غيرته على الثورة التي انتظرتها طويلا، لكن شغفي بها، لم يمنعني من الاختلاف مع بعض الممارسات التي قامت بها باسم الشعب والديمقراطية.

شددت برفق على يد الراحل، وتسمرت للحظات أمام جسده النحيل أتفرس في ملامحه بينما يلح على خاطري يقين بأنني قد لا ألقاه بعد اليوم.

١- القرن الـ٢١ هل يكون أمريكياً.

بحث فى استراتيجيا الصراع من أجل الهيمنة على العالم - نهضة مصر (٢٠٠٠) (الطبعة الثانية).

٢- دولارات الإرهاب.

شبكات تمويل الإرهاب فى العالم - نهضة مصر (٢٠٠٠) (الطبعة الثانية).

٣- بدائل العولمة.

طروحات جديدة لتجميل وجه العولمة القبيح - نهضة مصر (٢٠٠٢).

٤- أمريكا فى مواجهة العالم.

حرب باردة جديدة - نهضة مصر (٢٠٠٣).

٥- وفاة الأمم المتحدة.

أزمة المنظمات الدولية فى زمن الهيمنة الأمريكية (٢٠٠٦) الطبعة الثانية.

٦- الشرق الأوسط الكبير - مؤامرة أمريكية ضد العرب.

نهضة مصر (٢٠٠٦) الطبعة الثانية.

٧- أمريكا - أوروبا - ملامح أولية لوفاق دولى جديد

نهضة مصر (٢٠٠٦).

٨- الإسلاموفوبيا - لماذا يخاف الغرب من الإسلام

نهضة مصر (٢٠٠٦) - أصدرته مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٧.

٩- العلاقات الأورومتوسطية (٢٠١٤)

❑ **فى الفكر والثقافة:**

١٠- **مثقفون فى مهمة رسمية**: جدل الذات والآخر فى الفكر العربى المعاصر - دار إيجى مصر (١٩٩٩).

١١- **عمائم وطرابيش**: مصريون عاشوا فى باريس - إيجى مصر (٢٠٠٠) - أصدرته مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٥.

١٢- **عبد الرحمن بدوى**: فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام - مركز الحضارة العربية (٢٠٠١) - أصدرته مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٢.

١٣- **إشكالية ترجمة معانى القرآن الكريم** - محاكمة جاك بيرك - مركز الحضارة العربية (٢٠٠١).

١٤- **كذب المثقفون ولو صدقوا** - مواقف وخصومات - نهضة مصر (٢٠٠٤).

١٥- **ثرثرة تحت برج إيفل - هموم جيل مغترب** - نهضة مصر (٢٠٠٦).

١٦- فوبيا الإسلام فى أوروبا - إشكاليات الوجود العربى والإسلامى فى المجتمعات الغربية - كتاب أخبار اليوم (٢٠٠٦).

١٧- **تجديد الخطاب الثقافى** - مكتبة الأسرة (٢٠٠٨).

١٨- **دموع الريادة المصرية** - صعود وهبوط المد الثقافى المصرى فى العالم العربى - نهضة مصر (٢٠٠٨).

١٩- **أوجاع مصرية** - نهضة مصر (٢٠٠٨).

٢٠- **محمد أركون** – صورة من قريب (تحت الطبع)

٢١- جامعة السوربون.. عندما تتكلم بالعربى (تحت الطبع).

٢٢- حكايات قريتنا (تحت الطبع).

٢٣- معاركى فى الحياة (تحت الطبع).

❑ **فى الجامعات والدوائر الأكاديمية:**

٢٤- محاضرات فى العلوم السياسية.

٢٥- محاضرات فى مبادئ الاقتصاد والاقتصاد السياسى والدولى.

٢٦- محاضرات فى الميديا والرأى العام.

٢٧- محاضرات فى الإعلام والتنمية

٢٨- محاضرات فى الإعلام العربى (قضايا وإشكاليات).

٢٩- محاضرات فى تطبيقات وسائل الإعلام.

٣٠- محاضرات فى علوم الصحافة وفنون الكتابة (باللغة الفرنسية).

٣١- الخداع الإعلامى.

٣٢- دبلوماسية العلاقات العامة.

٣٣- محاضرات فى التنمية الاقتصادية

❑ **مؤلفات باللغة الفرنسية:**

34- La pensée Islamique Contempraine en Egypte (Sindbad – Paris 2001).

35- Cinq Entellectuels Egyptiens á Paris (pas encore Paru).

❑ **خبرات بحثية وأكاديمية:**

- شارك فى حلقات بحثية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية (منتدى القانون الدولى - مركز الدراسات الأوروبية - مركز البحوث والدراسات السياسية).

- أشرف على رسائل وأطروحات علمية للدكتوراه والزمالة والماجستير فى جامعات (باريس - وورلد الأمريكية- القاهرة - المنصورة - الأزهر - أكاديمية ناصر العسكرية العليا بالقاهرة).

* الخبرات:

- أصدر صحيفة صوت مصر فى باريس (١٩٨٣).

- رأس لعدة سنوات أول اتحاد منتخب للجالية المصرية فى فرنسا (١٩٨٩ - ١٩٩٣).

- رأس تحرير صحيفة أخبار الجالية المصرية (١٩٩١).

- أسس المركز المصرى لحوار الثقافات فى باريس (١٩٩٢).

- شارك فى تقديم النشرة الإخبارية وكتب تعليقات سياسية لقناة (إيرونيوز) (١٩٩٦).

- قام بتقديم تعليقات سياسية وبرامج ثقافية فى إذاعتى (مونت كارلو) و (الشرق) بباريس.

- كتب لعدد من الصحف العربية. ونشر مجموعة من الدراسات فى مجلة السياسة الدولية والملف الاستراتيجى، والملف العربى - الأوروبى.

- ألقى محاضرات وشارك فى ندوات دولية (بمنظمة اليونسكو)

- و(جامعة السوربون) و (جامعة مونبيلييه) والمراكز الثقافية العربية فى باريس.

- عمل مراسلاً لمجلة {أكتوبر} فى باريس (١٩٨٢)، ثم للأهرام (١٩٨٧-١٩٩٧).

- أشرف على نحو ٣٠ رسالة ماجستير ودكتوراه فى العلوم السياسية والإعلام.

❑ **جوائز ونياشين:**

- حصل على جوائز علمية من مركز الدراسات العربى الأوروبى بباريس وجامعات القاهرة والإسكندرية والمنصورة والمنوفية والأزهر.

- منحته محافظة الدقهلية نيشان التميز كعلم من أبنائها البارزين فى حقل الإعلام والتأليف والكتابة (٢٠٠٨).

* البيانات الشخصية:

الحالة الاجتماعية: متزوج وله ولدان - رامى (مهندس)، وشادى (إعلامى).

محل الميلاد : من مواليد عام ١٩٥٥ بالدقهلية - مصر.

تليفون/ فاكس :٣٧٢٢٩٤٤٤-٠١٢٢٧٤١٧٨١٦

الأهرام مباشر: ٢٧٧٠٣٦٣٧

الفهرس

